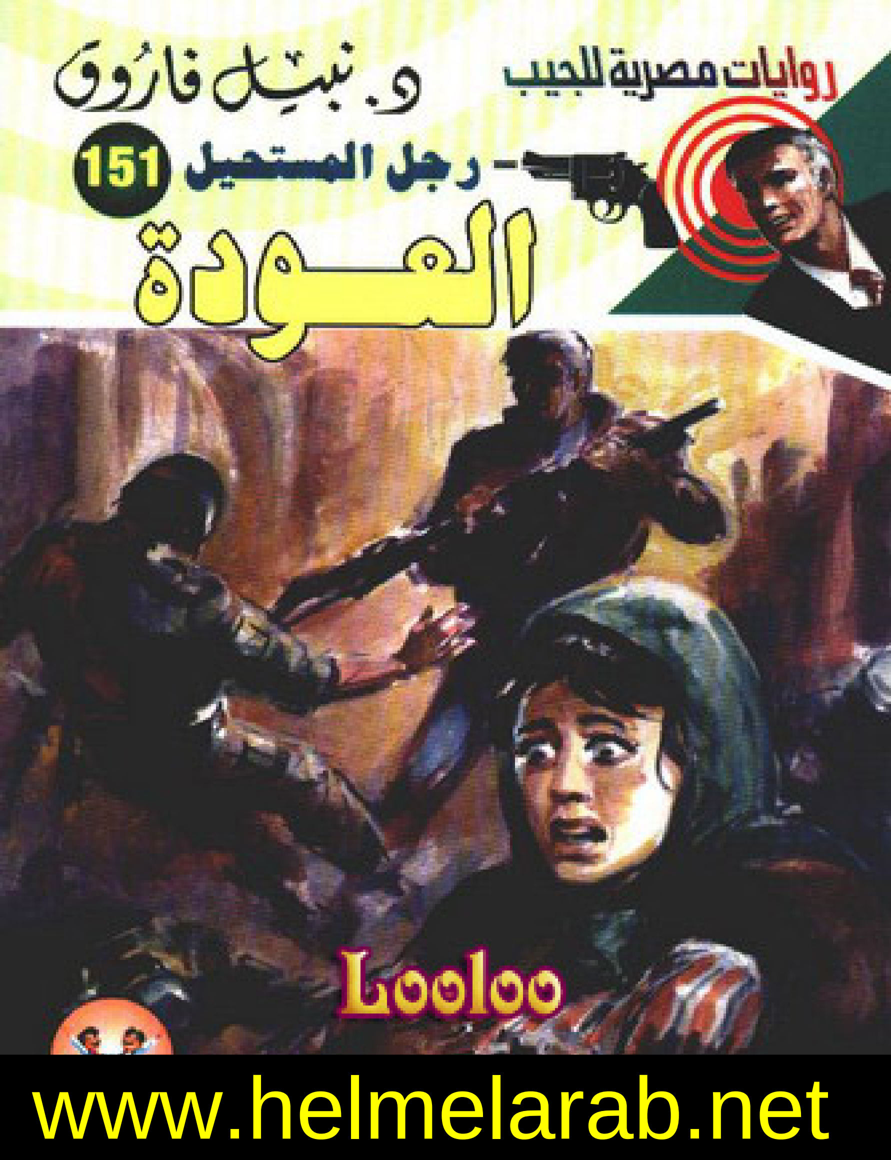


د. نبيل فاروق
روايات مصرية للجيب
رجل المستحيل - 151
العودة
Looloo

رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١- المجهول..

على الرغم من أن عقارب الساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة مساءً بعد، فإن شوارع مدينة (الفالوجا) العراقية قد خلت أو كادت من المارة، بعد الحصار الشرس، الذى طوّقت به قوات الاحتلال الأمريكية المدينة، والمعارك الضارية العنيفة، التى نشبت طوال النهار، بينها وبين أبطال المقاومة، والدماء التى أريقت أنهارًا، من شروق الشمس، وحتى غروبها..

وفى خوف واضطراب بلغا ذروتهما، ضمت تلك المرأة العراقية رضيعها إلى صدرها؛ فى محاولة لحمايته من البرد القارس، وهى تقطع الشوارع شبه الخالية، فى خطوات سريعة عصبية، بمحاذاة جدران المنازل، التى أفلتت من التدمير، وكأنما تحتمى بها، من كل نوائب ومصائب الدنيا، باحثة عن أية صيدلية، أو عيادة طبية، أو حتى فرقة من فرق العلاج التطوعية؛ لإسعاف صغيرها، التى بدأت حرارته فى الارتفاع، مع منتصف النهار، عندما بلغ القصف الأمريكى أوجه، ثم لم يلبث أن سقط صريع حمى غامضة، مع هبوط الليل..

كانت تعلم جيدًا أنها تجازف كثيرًا بالخروج، فى مثل هذه

الظروف ، وخاصة مع حالة حظر التجوال العسكرية الشرسة ، والتى فرضها المحتلون ، عقب سيطرتهم النسبية على المدينة ، إلا أن غريزة الأمومة فى أعماقها فاقت بعشرات المرات خوفها ورعبها ، ودفعتها دفعًا إلى الخروج مع رضيعها ، وقلبها يلهج بالدعاء لشفائه ، ويتمزق حزنًا عليه ..

لم تكن تدرى ما إذا كانت ستظفر بهدفها أم لا ، إلا أنها لم تتوان عن قطع كل الطرق ، واللهاث من حى إلى حى ، على أمل إسعاف الصغير المسكين ، الذى راح يرتجف فى صدرها ، على الرغم مما تدثره به ، وكأنما تنهار خلاياه الرقيقة الضعيفة ، تحت وطأة المرض والحمى ، و ...

« توقفى .. » ..

انطلق النداء الصارم بغتة بلغة عربية ركيكة للغاية ، وبلكنة أمريكية واضحة ، فتجمدت أطرافها كلها دفعة واحدة ، واتسعت عيناها فى رعب وهلع ، وضمت رضيعها إلى صدرها أكثر ، وهى تحدق فى أربعة من الجنود الأمريكيين ، المدججين بالسلاح ، الذين صوبوا مدافعهم الآلية نحوها ، فى تحفز شرس ، وقائدهم يهتف بها ، فى كلمات جمعت بين العربية والإنجليزية :

ـ من أنت ؟! وماذا تفعلين هنا ؟!

هتف بأسئلته ، وهو يتقدم نحوها ، فى تحفز شديد ، وتوتر فاق توترها ، وحاولت هى أن تجيبه مباشرة ، إلا أن الرعب عقد لسانها فى حلقها لحظة ، صرخ هو خلالها :

ـ أجيبى .

استجمعت ما تبقى من شجاعتها ، وازدردت لعابها ، فى محاولة لترطيب حلقها الجاف ، ومعاونته على النطق ، وهى تغمغم فى صعوبة :

ـ ابنى مريض ، و ...

« هراء ! »

قاطعتها صرخته الهادرة ، وهو يندفع بمدفعه الآلى الضخم نحوها ، فتراجعت بحركة حادة ، والتصقت بالجدار مرتجفة ، وانتفض قلبها بين ضلوعها ، خوفًا على ابنها ، الذى حدق فيه الجنود الأربعة فى شراسة ، وكبيرهم يواصل :

ـ ومن أدرانا أن ما تحملينه طفلاً .

وعلى الرغم من ذعرها ، اتسعت عيناها فى دهشة ، وهى تغمغم :

ـ وماذا يمكن أن يكون ؟!

تعقد حاجبا قائد الجنود الأربعة ، بكل وحشية الدنيا ، وهو يجيب :

ـ متفجرات .

شهقت فى هلع ، وضمت رضيعها إلى صدرها أكثر ، هاتفة :

ـ متفجرات ؟!

اقترب منها أحدهم فى عصبية ، وهو يهتف :

ـ أكاد أثق فى أنها كذلك .. أى طفل هذا الذى يظل صامتاً ساكناً ، وأنت تعتصرينه فى صدرك على هذا النحو .

نبهتها عبارته إلى أنها تقسو على رضيعها ، فخففت ضمها إليه ، وهى تهتف :

ـ أقسم أنه ...

قاطعها كبيرهم ، وهو يدفع فوهة مدفعه الآلى فى وجهها ، صائحاً :

ـ أعطينى هذا الشىء .

شهقت مرة أخرى ، وتمنت لو انشق الجدار وابتلعها ، وهى تصرخ :

ـ أى شىء .

صاح بكل شراسة الدنيا :

ـ المتفجرات .

انتابها رعب ما بعده رعب ، وهى تهتف :

ـ ليست متفجرات .. إنه طفلى .. إنه مريض ، و ...

قاطعتها صرخة هادرة ، ارتجفت لها كل خلية فى جسدها :

ـ أعطينى إياها .

ارتجف جسدها كله ، وهى تصرخ :

ـ لا .. لا .. إنه طفلى .

اندفع الجنود الأمريكيون الأربعة ، بأجسادهم الضخمة الهائلة ، نحو المرأة المسكينة ، ذات الجسد النحيل الضئيل ، وقائدهم يصرخ :

ـ أعطينا إياها .

بدا لها وكأن الجحيم قد فتح أبوابه على مصارعيها ، وأطلق شياطينه نحوها ؛ لينتزعوا منها رضيعها ، فضمته إليها مرة أخرى فى قوة ، وصرخت :

ـ لا .. لا .. اتركوا طفلى .. اتركوه .

وارتفعت فوهات المدافع الآلية الأربعة نحو وجهها ، بكل شراسة ووحشية الدنيا ، فأغلقت عينيها على دموعها الغزيرة ، صارخة فى ضراعة وانهيار :

ـ اتركوه .

كانت تتوقع رصاصاتهم فى أية ثانية ، فما عرفته عنهم ، منذ احتلوا وطنها ، هو أنهم لا يقيمون وزنًا لأية قواعد أو مشاعر ، ولا يترددون لحظة فى إراقة دماء أى شخص يعترض طريقهم ، رجلاً كان أم طفلاً ، شيخًا أم امرأة ..

سيقتلونها حتمًا ؛ لأنها أثارت غضبهم ..

وسينتزعون طفلها ..

و ...

وبدلاً من دوى الرصاصات ، التقطت أذناها صوت ضربات ..

لكمات ..

وركلات ..

وتأوهات مكتومة ..

وبكل دهشة وذعر الدنيا ، فتحت عينيها ، وحدقت فيما يحدث أمامها ..

كان اثنان من الجنود الأربعة فاقدى الوعى ، والثالث يرتطم بالجدار الذى تستند إليه ، ثم يرتد فى عنف ، فتستقبله لكمة كالقنبلة فى فكه ، أطارت اثنتين من أسنانه ، قبل أن يهوى عند قدميها كالحجر ..

وأمام عينيها مباشرة ، وعلى الضوء الخافت ، رأت الجندى الرابع ، وهو يرفع فوهة مدفع ، فى رعب عجيب ، نحو رجل قوى البنية ، عريض المنكبين ، ممشوق القوام ، لم يمكنها تبين ملامحه جيدًا ..

وقبل أن يضغط الجندى الرابع زناد مدفعه ، فوجئت بذلك الرجل ينقض عليه كالصاعقة ، وينتزع المدفع من يده ، ثم يحطم أنفه وفكه بلكمتين متعاقبتين عنيفتين ، ثم يهوى على مؤخرة عنقه بكعب المدفع ، ليسقطه فاقد النطق كرفاقه ..

وفى أعمق أعماقها ، رأت المرأة كل ما حملته لكمات ذلك الرجل من غضب وثورة ومقت ..

لم يكن يضرب الجنود الأمريكيين فحسب ، وإنما كان ينتقم فى شخصهم ، من كل ما فعلته إدارتهم بشعبها ..

أو ربما بشعبه هو ..

المهم أن الموقف قد انتهى بسقوطهم جميعًا ، فى حين ظل هو قويًا شامخًا ممشوقًا ، وهو يلتفت إليها ، ويسألها ، فى شىء من الصرامة :

ـ لماذا غادرت منزلك ، فى مثل هذه الظروف ؟!

أجابته مرتجفة :

ـ ابنى مريض .. الحمى تلتهم كيانه الصغير بلا رحمة .

تلاشت الصرامة من صوته دفعة واحدة ، وبدا حانيًا على نحو مدهش ، وهو يمد يده إليها ، قائلاً :

ـ أعطينى إياه .

لم تكن هناك قوة واحدة ، فى الأرض كلها ، يمكنها إقناعها بالتخلى عن رضيعها ، إلا أنها ، ولسبب لم يمكنها فهمه أو تفسيره أبدًا ، مدت يدها إليه بالصغير ، فالتقطه منها فى رفق وحنان بالغين ، على نحو جعلها تتساءل : كيف يمكن ليد واحدة ، أن تضرب بكل هذه القسوة ، وتحمل بكل هذا الحنان ، فى آن واحد ؟! وبصوت استعاد صرامته ، قال الرجل :

ـ اتبعينى .

نطقها ، ثم تحرك بخفة مدهشة ، فلحقت به فى سرعة ، وراودها اطمئنان غامض عجيب ، لوجود صغيرها بين ذراعيه ، وهو يتخذ معها مسارات معقدة ، ويقودها عبر دروب عجيبة ، حتى وجدت نفسها فجأة أمام واحدة من المراكز الطبية التطوعية ..

عندئذ فقط ، أعاد إليها صغيرها ، وهو يقول فى حزم ، وبلهجة لم تتبين منشأها بالتحديد :

ـ هنا سيساعدونك .

التقطت صغيرها فى لهفة ، واندفعت نحو المركز ، ثم انتبهت إلى أنها لم تتقدم لذلك المجهول بشكرها ، فالتفتت إلى حيث يقف ، قبل أن تتسع عيناها عن آخرهما ، بمنتهى الدهشة ..

فخلفها ، وفى كل مكان حولها ، لم يكن هناك أثر لذلك المجهول ..

أدنى أثر ..

* * *

حمل صوت نائب مديـر المخـابرات العامـة المصريـة كل توتره وانفعاله ، وهو يضع تقريرًا عاجلاً أمامه ، قائلاً :

ـ لقد فعلها مرة أخرى .

التقط المدير التقرير ، وطالعه فى اهتمـام بـالغ ، قبل أن ينعقد حاجباه ، ويتراجع فى توتر مماثل ، قائلاً :

ـ عجبًا .. هذا الأسلوب ...

لم يتم عبارته ، وإنما بترهـا فـى أعماقـه ، وراح يداعب ذقنه بسبابته وإبهامه ، قبل أن يسأل فى اهتمام :

ـ ما رأى الأمريكيين ؟!

أجابه نائبه فى سرعة :

ـ الأمر يثير توترهم إلى أقصى حد ، فهم يواجهـون بـالفعل مقاومـة شرسـة عنيفـة ، فـى عـدة منـاطق فـى (العـراق) ، وكـل محـاولاتهم لتحجيـم المقاومـة تنتهـى بالفشل ، أو بنتائج محدودة للغاية ، ولا يمكنهم ، إلـى جوار كل هذا ، احتمال وجود شخص مجهول مثلـه ، كـاد يتحوّل إلى أسطورة ، يتناقلهـا الكل خفيـة ، وينسبون إليـه فيهـا قدرات خارقة عجيبة .

تطلّع إليه المدير لحظة ، ثم نهض من خلف مكتبه ، واتجه نحو النافذة ، وتطلّع عبرها بضع لحظات ، قبل أن يقول :

ـ إنه يمتلك بالفعل مهارات مدهشة ، تفوق ما يمتلكه أى مقاتل عادى ، وتحركه المنفرد عجيـب للغايـة ، فـى ظروف كهذه ، ثم إن ضرباته دومًا مباغتـة ومركزة ، وتـأتيهم مـن حيث لا يتوقعون .

غمغم النائب :

ـ هذا ما يثير جنونهم بالفعل .

ارتسمت على شفتى المدير ابتسـامة إعجـاب ، وهـو يواجه النافذة ، قائلاً :

ـ كشف خسائرهم معه أيضًا يتضـاعف كل يـوم ؛ ففـى آخر مرة كلّفهم طائرة هليوكوبتر ودبابتين .

قال النائب ، فى شىء من الحيرة :

ـ المدهش أنه لم يقتل أحدًا منهم أبدًا .

حمل صوت المدير نبرة عجيبة ، وهو يقول :

ـ بالضبط .

ثم التفت إلى نائبه ، مستطردًا ، فى انفعال مدهش :

ـ ألا يذكرك هذا بشخص ما ؟!

بدت الدهشة على وجه النائب ، قبل أن يجيب فى حذر :

ـ ليس بشخص على قيد الحياة ، يا سيادة الوزير .

تطلّع إليه المدير بضع لحظات ، قبل أن يعود إلى مكتبه ، ويسأل فى صرامة :

ـ ما أخبار الفحوص ، التى يجريها الأمريكيون ، فى مقر تلك الزعيمة ، فى قلب المحيط(*) ؟

أدرك النائب ما يرمى إليه المدير ، فتنهّد ، مجيبًا :

ـ بعد ثلاثة أشهر من البحث ، ما زالت النتائج التى حصلوا عليها سلبية .

سأله المدير فى اهتمام :

ـ بشأن (ن ـ ١) .

صمت النائب لحظة ، ثم أجاب فى حزم :

ـ بشأن الفريق كله .

(*) راجع قصة (النهاية) ... المغامرة رقم (١٥٠) .

تراجع المدير فى مقعده ، وهو يقول :

ـ إذن ، فليس هناك دليل مادى واحد ، على مصرع (ن ـ ١) ، أو (منى) ، أو (قدرى) ، أو (شريف) ، أو (ريهام) .

تنهّد النائب مرة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ سيّدى .. لقد مرت ثلاثة أشهر ، وعدم وجود دليل مادى ، لا يعنى أن ..

قاطعه المدير فى حزم :

ـ لا يعنى أى شىء فى الواقع .

ونهض من خلف مكتبه مرة أخرى ، مضيفًا :

ـ لا يعنى أى شىء بالتحديد .

وتوقف مرة ثانية أمام نافذة الحجرة ، ولاذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يتابع فى خفوت :

ـ وهذا يضعنا أمام تلك الكلمة ، التى أشعر معها دومًا بالكثير من الارتياح .

اعتدل النائب فى اهتمام ، فأضاف المدير فى حزم :

ـ ربما .

ولم ينطق النائب بحرف واحد ..

لذا ، فقد ساد الحجرة هدوء تام ..

هدوء غامض ..

وعميق ..

إلى أقصى حد ..

* * *

« لا يمكننا السكوت على هذا أبدًا .. »

نطق الجنرال الأمريكى ، المسئول عن مكافحة المقاومة العراقية العبارة ، فى غضب وعصبية شديدين ، وهو يواجه ضباطه ، الذين تبادلوا نظرة متوترة ، قبل أن يستجمع أحدهم شجاعته ، ليقول :

ـ جنرال (أيكون) .. ما نواجهه ليس تقليديًا ، بأى حال من الأحوال ، فمنذ وطئت أقدامنا أرض (العراق) ، نواجه معارك مباغتة ، لا يمكننا اختيار ميدانها أو توقيتها ، والمقاومة العراقية تنصب لنا الفخ تلو الآخر ، من قبل حتى أن يظهر ذلك المجهول ، الذى ...

قاطعه الجنرال (أيكون) ، فى صرامة شديدة :

ـ المقاومة ؟! أية مقاومة ؟! إنهم فئات منشقة ، ترفض الحرية والديمقراطية ، اللتين أتينا لمنح العراق إياها .

تبادل الضباط نظرة ساخرة صامتة ، قبل أن يقول أحدهم :

ـ بالطبع يا جنرال .. بالطبع .. إنهم منشقون ، ولكننا نستخدم المصطلح ، الذى يطلقونه على أنفسهم .

دق الجنرال (أيكون) سطح منضدة الاجتماعات بقبضته ، قائلاً :

ـ خطأ أيها الضابط .. خطأ .. استخدام مصطلح (المقاومة) ، يعنى أن نصبغ ما يفعلونه بصبغة شرعية ، تبيح لهم تصيد قواتنا ، وقتل جنودنا طوال الوقت .

تبادل الضباط نظرة صامتة أخرى ، واندفع أحدهم يقول :

ـ ولكن هذا حقهم يا جنرال .

خُيِّل للباقين أن وجه الجنرال (أيكون) يكاد يتفجَّر من الغضب ، وهو يقول ؛ بمنتهى الغضب والاستنكار :

ـ حقهم ؟!

أجابه ذلك الضابط فى صرامة :

ـ نعم .. حقهم يا جنرال ، فبغض النظر عما نردده ، فى كل وسائل الإعلام ، فقد سعينا لاحتلال أرضهم وبترولهم ، والسيطرة على ثرواتهم ومقاديرهم ، وحتى لو حاولنا خداعهم بكلمات وعبارات رنانة أنيقة ، مثل الحرية والديمقراطية والعدل ، فسيبقى تواجدنا على أرضهم ، ومانفعله بهم كل يوم ، كدافع لأن يقاوموا ، ويقاوموا ، حتى آخر نفس يتردد ، فى صدر آخر طفل ، تجرى فى عروقه الدماء العربية .

بُهِتَ الكل لقوله هذا ، واتسعت عينا الجنرال (أيكون) ، فى ذهول مستهجن مستنكر ، قبل أن تتحول مشاعره كلها إلى الغضب الهادر ، وهو يميل نحو ذلك الضابط ، قائلاً فى صوت متفجر :

ـ كيف تجرؤ ؟!

تراجع الضابط فى مقعده ، وهو يقول فى سخرية :

ـ عجبًا ! كنت أظننا بلد الحريات ، حيث يمكن لكل شخص أن يعبر عن آرائه بوضوح وصراحة ، دون أن يخشى مسئولاً ، أو سياسيًا ، أو ...

وصمت لحظة ، ثم أضاف ، فى سخرية أكثر عنفًا :

ـ أو جنرالاً .

ارتجف الضباط على مقاعدهم ، وهم يحدقون فى زميلهم ، بكل ذهول الدنيا ، إذ لم يعهدوه فى حياتهم كلها بهذه الجرأة وهذا الاندفاع ..

أما الجنرال (أيكون) ، فقد بدا لهم وكأنه قد تلقى صفعة عنيفة ، دار معها رأسه ، واتسعت لها عيناه ، واحتقن وجهه بمنتهى الشدة ، وهو يلوّح بسبّابته فى وجه ذلك الضابط ، هاتفًا :

ـ أنت .. أنت ..

لم يمنحه ذلك الضابط فرصة لإتمام عبارته ، أيًا كان فحواها ، وإنما هب واقفًا فى حزم شديد ، وناوله مظروفًا مغلقًا ، وهو يقول :

ـ لن يمكنك أن تفعل بى شيئًا ، وهنا ستجد ما يثبت هذا .

انتفض جسد الجنرال فى عنف ، وهو يتجاهل المظروف ، صائحًا :

ـ لا يمكنك أن تفعل هذا ، ثم تتصرف بكل بساطة .. أنت محال إلى محاكمة عسكرية ، بتهمة إهانة قائدك .. هل تفهم ؟! محاكمة عسكرية .

بدا الضابط لزملائـه أكثر قوة وتماسكًا وسخرية .. بل وحجمًا أيضًا ، وهو يبتسم ، ويلقى المظروف فى منتصف منضدة الاجتماعات ، قائلاً :

ـ هل تظن هذا حقًا ؟!

ثم استدار ، واتجه بخطوات قوية ، حاسمة ، واثقة ، واسعة ، نحو باب الحجرة ، والجنرال يهتف من خلفه :

ـ قف يا رجل .. هذا أمر .

ولكن الضابط غادر الحجرة بالفعل ، وصفق بابها خلفه فى قوة ، مما زاد من احتقان وجه الجنرال ، وانتفاضة جسده الانفعالية ، وهو يردد :

ـ لقد فعلها .. لقد فعلها .

هتف أحد الضباط ذاهلاً ، ومرددًا ما يدور فى ذهن رفاقه :

ـ ولكن لماذا ؟!

اندفع آخر يلتقط المظروف ، الملقى فى منتصف المنضدة ، وهو يقول فى لهفة :

ـ قال : إن الأسباب كلها هنا .

تبعته الأعين كلها ، وهو يفض المظروف بسرعة ، و ...

وفجأة ، انبعث ذلك الصوت ، الشبيه بالفحيح المكتوم ..

ثم انطلقت سحب الدخان من المظروف ..

ووثب الكل من مقاعدهم فى هلع ..

وكان الجنرال أول من اندفع إلى الباب ، صارخًا :

ـ فخ .. إنه فخ ..

ولكن الباب كان موصدًا من الخارج بإحكام ، فهوت قلوبهم جميعًا بين أقدامهم ، وذلك الدخان ، المنبعث من المظروف ينتشر ..

وينتشر ..

وينتشر ..

بلا نهاية .

* * *

٢ ـ صفقة ..

انعقد حاجبا مدير المخابرات المركزية الأمريكيـة فـى شـدة ، وهـو يطـالع ذلـك التقريـر العـاجل ، الـوارد مـن (العراق) ، قبل أن يرفع عينيه إلـى رجالـه ومعاونيـه ، قائلاً :

ـ أسلوب احترافى مدهش ، ومهـارة تبعث على الحيرة والذهول ، فوفقًا لهذا التقرير ، انتحل ذلك المجهول شخصية العاجور (أدوين) ، على نحو خدع رفاقه أنفسهم ، وجلس وسطهم ، على مائدة الاجتماعات ، بمنتهى الجرأة والثقة ، وأعلن رأيه فى وضوح تام ، ثم انصرف فى لا مبالاة ، تاركًا مظروفًا خلفه ، وأحكم إغلاق الباب على الكل .

انبرى أحد الرجال ، يقول فى اهتمام ، حمل لمحة من القلق :

ـ التقنية نفسها ، التى أعد بها المظروف ، تشف عن خبرة واسعة ، ومهارة بلا حدود .

أشار آخر بسبابته ، قائلاً :

ـ ما يدهشنى حقًا ليس تقنيته ، ولا خبراته ، ولا حتى

قدرته المربكة على تقمص شخصيات الغير ، وإنما يدهشنى بحق أن يفعل كل هذا ، ثم يستخدم غازًا مسيلاً للدموع فى النهاية ، فى حين كان بإمكانه استخدام غاز سام ، والقضاء عليهم جميعًا .

انعقد حاجبا مدير المخابرات الأمريكية ، وهو يتراجع فى مقعده ، وذهنه يستعيد أحداثًا عنيفة ، خاضها منذ أشهر قليلة ..

أحداث تعرّضت خلالها (أمريكا) كلهـا ، بل والعالم كله من خلفها ، إلى أخطر ما واجهته ، فى تاريخها كله ..

والمدهش أنها عجزت ، بكل قواتها وقوتها ، على درء ذلك الخطر الداهم الرهيب ، وهزيمة تلك الزعيمـة الغامضـة المجهولة ، لولا ذلك الرجل ..

(أدهم صبرى) ، ضابط المخـابرات المصـرى ، الـذى تصدّى للخطر ، وواجهه ..

وهزمه فى النهاية ..

كالمعتاد ..

ولكن الثمن كان فى تلك المرة فادحًا ..

فادح إلى أقصى حد ..

ففى محاولة منها ؛ لمنع (أدهم) من تدمير أقوى سلاح عرفته الأرض ، والذى كانت تستمد منه قوتها ، سحقت الزعيمة رفاق (أدهم) وابنه (آدم) أمام عينيه ، بمنتهى القسوة والوحشية ..

بلا تردُّد ..

وبلا رحمة ..

وعلى عكس توقعاتها ، ضاعف هذا من غضب (أدهم) وعزيمته ..

ألف مرة ..

وعلى الرغم من إدراكه التام ، أن حياته ستكون هى الثمن ، أشعل (أدهم) نظام التدمير الذاتى فى جزيرة الزعيمة ..

وكان الانفجار رهيبًا ..

عنيفًا ..

مذهلاً ..

انفجار أطاح بكل شىء ..

وكل شخص

و ...

« سيِّدى .. »

انتزعه نداء أحد رجاله من ذكرياته وشروده ، فاعتدل مدير المخابرات الأمريكية فى مقعده ، وهو يقول ، فى خشونة مضاعفة ، أراد أن يخفى بها توتره :

ـ ماذا هناك ؟!

أجابه الرجل فى توتر :

ـ كنا نراجع صفات ذلك المجهول فى (العراق) ، على كل ما لدينا من بيانات وملفات ، فمنحنا الكمبيوتر نتيجة غير منطقية ، وعلى الرغم من هذا ، فهو يصر عليها ، فى كل مرة .

حمل صوت مدير المخابرات الأمريكية كل توتره وانفعاله ، وهو يقول :

ـ (أدهم صبرى) .

اتسعت عيـون الرجـال فـى دهشـة ؛ لجوابـه السـريع الواثق ، ثم اندفع أحدهم يقول ، فـى عصبيـة واضحـة ، لم يمكنه كتمانها :

ـ ولكن رجل المخابرات المصرى هذا لم يعد لـه وجود فعليًا .

انعقد حاجبا مدير المخابرات الأمريكية فى صرامة ، وهو يميل نحو هذا الأخير ، متسائلاً فى حدة :

ـ هل أعلن مختبر فحص الأشلاء وفاته رسميًا ؟!

بُهِتَ الرجال كلهم للسؤال ، وتبادلوا نظرة عصبيـة ، قبل أن يغمغم أحدهم :

ـ ليس بعد .

تراجع المدير فـى مقعده مرة أخرى ، وهو يقـول فـى صرامة أكثر :

ـ إذن ، فحتى يرد إلينا تقرير رسمى ، يؤكـد مصرعـه ، سنتبنى مـا أعلنـه الكمبيوتر ، وسنتعامل باعتبـار أن ذلـك المعتدى المجهول ، على قواتنا فى (العراق) ، هو (أدهم صبرى) ، حتى يثبت العكس .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى قوة ، حملت رنة شرسة :

ـ وهذا من الناحية الرسمية .

نطقها ، وكل ذرة فى أعماقه ، تتمنى أن يكون مخطئاً .. كل ذرة ..

* * *

ارتسمت ابتسامة ساخرة عجيبة ، على وجه تلك الصينية الحسناء الشابة ، على الرغم من فوهات الأسلحة ، المصوبة إلى رأسها مباشرة ، وقـالت للرجـال الثلاثـة ضخـام الجثـة ، الذين يحملون تلك الأسلحة ، فى نبرة ساخرة لامبالية :

ـ رويدكم أيها الوحوش .. أنا مجرد امرأة .

كانت تقف على متن يخت صغير ، فى ميناء (كراكاس) ، عاصمـة (فنزويلا) ، فـى (أمريكا) اللاتينية ، والمنطقـة المحيطة بها خالية تمامًا ، من القـوارب والبشر ، لذا فقد تجاهل الرجال الثلاثة قولها ، وراح أحدهـم يفتشـها فـى سرعة ودقة ؛ للتيقن من أنها لاتحمل أية أسلحة ، فرفعت هى أحد حاجبيها ، وقالت بنفس السخرية :

ـ هل راق لك هذا ؟!

اعتدل الرجل فى صرامة ، وأشار إلى منطقة جلوس أنيقة ، وهو يقول فى خشونة :

ـ اجلسى .

أطاعته فى هدوء ، وجلست فـى استرخاء عجيب ، وتجاهلت المدافع الآلية المصوَّبة إليها ، وهى تسبل جفنيها ، قائلة :

ـ كم هى ممتعة شمس اليوم .

لم يلتفت الرجـال إلى قولها ، أو يحـاول أحدهم التعليق على عبارتها ، واليخـت ينطلـق بهم جميعًـا فـى البحـر الكاريبى ، نحو واحدة مـن جزر (الأنتيل) ، المنتشـرة هناك ..

وطوال الطريق ، الذى استغرق عـدة سـاعات ، بـدت الصينية الشابة هادئة مستمتعة ، وكأنما خرجت فى رحلة صيد ، أو فى نزهة للاستجمام ..

بل ، لقد استغرقت فى نوم عميق لساعة أو يزيـد ، على نحو أدهش الرجال الثلاثـة ، الذيـن اعتـادوا أن يرتجف الأشداء ، أمام فوهات مدافعهم الآلية القوية دومًا ..

وعندما استيقظت ، ضاعفت من دهشتهم وحيرتهم ، عندما تثاءبت فى استمتاع ، وغمغمت بابتسامة جزلة :

ـ من الرائع أن يغمض المرء جفنيه ، وهو واثق من أن ثلاثة وحوش مثلكم يحرسونه .

وأيضًا ، لم يعلق أحدهم على قولها بحرف واحد ، حتى استقر اليخت عند تلك الجزيرة الصغيرة ، حيث كانت فى انتظارهم سيارة مكشوفة ، من الطراز المخصص للطرق الوعرة ، وعلى متنها رجلان آخران ، استقبلا الصينيـة الحسناء ، وأعادوا تفتيشها ، قبل أن يحملاها فى السيارة ، عبر طرق شديدة الوعورة والصعوبة ، إلى منطقة فسيحة ، تحيط بها الجبال العالية من كل جانب ، وتعزلها عما يحيط بها ، إلا من خلال ممر صغير ، قطعته السيارة ، لتتوقف أمام مبنـى مـن طابقين ، يبدو أشبه بمبانى الأرصاد البسيطة ..

وفى صرامة خشنة ، قال أحد الرجلين :

ـ إنهم فى انتظارك .

وثبت الصينية الحسناء من السيارة فى رشاقة ، واتجهت نحو المبنى ، حيث تم استقبالها ، وإعادة تفتيشها ، قبل أن

يخرج إليها رجل وسيم الملامح ، أنيق الملبس ، ابتسم قائلاً :

ـ سيدتى .. مرحبًا بك هنا .. فالقليل هم من نسمح لهم ببلوغ هذا المكان أحياء ، ولكن يبدو أن الطلب الذى تقدمت به ، قد أثار اهتمام مستر (X) كثيرًا .

ابتسمت فى شىء من السخرية ، وهى تقول :

ـ مدهش .. لم أكن أتوقع قط أن ألتقى بمسئول علاقات عامة لبق ، فى مكان كهذا .

تجاهل الرجل قولها ، على الرغم من ابتسامته الأنيقة ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ مستر (X) سيستقبلك فورًا .

ارتفع حاجباها فى دهشة حقيقية ، وهى تغمغم :

ـ ياله من شرف !

فتح الرجل أمامها بابًا أنيقًا ، وهو يدعوها إلى الدخول ، فتألقت بمنتهى الثقة إلى الحجرة المظلمة ، وهى تقول فى سخرية :

ـ لا تقل لى : إنكم قد أنشأتم كل هذا ، ونسيتم تزويده بمصابيح إضاءة .

كانت تتوقع جوابًا من الرجل ..

أى جواب ..

إلا ما فعله ..

فما أن أصبحت داخل الحجرة ، حتى أغلق بابها خلفها بقوة ، وعلى نحو جعلها تستدير إليه فى حدة ..

ولم تكد تفعل ، حتى أضيئت شاشة ضخمة فى الجدار ، وغمر الضوء المنبعث منها الحجرة ، مع صوت مستر (X) العميق ، المعدّل أليكترونيًا ، وهو يقول فى هدوء ، حمل رنة صارمة :

ـ مرحبًا بك فى أحد مقارنا .

استدارت فى دهشة إلى الشاشة الكبيرة ، وحدقت فيها لحظة ، قبل أن تنطلق من حلقها ضحكة عالية مجلجلة ، جعلت مستر (X) يتراجع فى مقعده ، وسط دائرة الظل التى تحيط بوجهه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هل يبدو الأمر مضحكًا ، إلى هذا الحد ؟!

أشارت بيدها ، قائلة :

ـ ضع نفسك فى موضعى ؛ فبعد كل إجراءات الأمن المعقدة ، ألتقى بك على شاشة جهاز اتصال .

صمت لحظة ، وكأنما لم ترق له عبارتها ، ثم قال فى صرامة :

ـ اجلسى .

لاحظت ، فى تلك اللحظة فقط ، وجود مقعد واحد فى الحجرة ، فاتجهت نحوه ، وجلست عليه ، ولم تكد تفعل ، حتى انطلقت من المقعد مجسات دقيقة صغيرة ، التصقت بجسدها ، فى مواضع شتى ، فابتسمت فى سخرية ، قائلة :

ـ أهو مقعد الحقيقة أم ماذا ؟!

أجابها فى صرامة :

ـ إنه كذلك .. تلك المجسات الأليكترونية ستنقل إلىّ نبضات قلبك ، ومعدل تنفسك ، و ...

قاطعته ساخرة :

ـ صورة معدّلة من جهاز كشف الكذب إذن(*) .

(*) جهاز كشف الكذب (Polygraph) : جهاز متعدّد التوجهات ، =

أجابها فى اقتضاب صارم :

ـ بالضبط .

حاولت أن تسترخى فى مجلسها ، على الرغم من وجود تلك المجسات ، وهى تغمغم :

ـ ألا تثق فىّ ؟!

حملت لهجته ، وربما لأوّل مرة ، لمحة ساخرة ، امتزجت بصرامته ، وهو يجيب :

ـ فى مهنتنا هذه ؟! كلا بالطبع .

قالت ، فى شىء من التحدى :

ـ ولكن البعض يمكنه خداع أجهزة كشف الكذب .

أجاب فى صرامة :

ـ التكنولوجيا تتطور كل يوم .

= يستخدم لقياس التغيرات ، فى معدلات النبض والتنفس وإفراز العرق ، خلال إجابة أسئلة بعينها ، بحيث يمكنه تحديد الصدق والكذب فى الإجابات ، وقد وضع الفكرة (جون أ. لارسن) عام ١٩٢١ ، إلا أنه لم يتم استخدامها عمليًا ، إلا فى عام ١٩٧٢م ، مع اختراع الجهاز نفسه ، على يد (آلان بيل) الأمريكى .

حاولت أن تجادله فى الأمر ، إلا أنه استطرد فى خشونة :

ـ ما الذى لديك بالضبط ؟!

اعتدلت فى مجلسها ، والتقطت نفسًا عميقًا ، قبل أن تقول :

ـ لقد أرسلت إليك .

قاطعها فى صرامة :

ـ أعرف ما أرسلتيه إلى أحد مراكزى ، وأعرف أيضًا كيف عرفت عنوان مراسلاتنا ومراكزنا ، ولكن رسالتك لم تحمل أية تفاصيل ، وإنما مجرد عرض مبهم غير واضح .

التقطت نفسًا آخر أكثر عمقًا ، وقالت :

ـ اسمى (تيا) .

قال فى برود صارم :

ـ أعلم هذا .

تابعت ، وكأنه لم يقاطعها :

ـ كنت المساعدة الأولى للزعيمة التى ...

قاطعها فى ضجر :

ـ أعلم هذا أيضًا .

حمل صوتها نبرة التحدى مرة أخرى ، وهى تقول :

ـ وهل تعلم أيضًا أننى قد نجوت ، من ذلك الانفجار ، الذى نسف مقر قيادتها وأسلحتها كلها ؟!

قال فى برود :

ـ بالتأكيد ، وإلا لما كنت هنا الآن .

انعقد حاجباها ، وهى تقول :

ـ الجديد إذن هو أننى لم أنج منه وحدى .

صمت بضع لحظات ، وكأنما أصاب قولها هدفه بالفعل ، ثم تساءل فى حذر ، لم يخف صرامته واهتمامه :

ـ من نجا أيضًا ؟!

تراجعت فى مقعد الحقيقة ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة ظافرة ؛ لأنها قد نجحت فى جذب انتباهه ، وهى تجيب :

ـ ما لاتعلمه ، أن الزعيمة قد فقدت صوابها ، عندما أصبح

(أدهم صبرى) قاب قوسين أو أدنى من هزيمتها ، فضغطت زر التفجير ؛ لتنسف رفاقه المحتجزين كلهم .

سألها فى اهتمام :

ـ وهل فعلت ؟!

صمتت (تيا) لحظة ، ثم أجابت فى حزم جذل :

ـ تتصوَّر أنها فعلت .

تراجع فى مقعده ، متسائلاً فى حذر :

ـ تتصوَّر ؟!

شملها حماس عجيب ، وهى تجيب :

ـ نعم .. لقد ضغطت زر التفجير ، ورأت الانفجار على شاشتها ، وكذلك رآه (أدهم) على شاشته ، وتصوَّر كلاهما أن الجميع قد لقوا مصرعهم .

ثم خفت حماسها ، وهى تتراجع ، مضيفة :

ـ ولكنها كانت مخطئة .

سألها مستر (X) بمنتهى الاهتمام :

ـ ولماذا ؟!

أشارت بسبابتها ، مجيبة فى حزم :

ـ لأنها نسيتنى .. تجاهلتنى .. لم تنتبه إلى أننى أعرف معظم ما تعرفه هى عن تكنولوجية المكان ، و ...

قاطعها ، عاجزًا عن إخفاء لهفته :

ـ ماذا حدث هناك بالضبط ؟!

تألقت عيناها فى زهو ، وهى تجيب :

ـ التكنولوجيا يا عزيزى مستر (X) .. التكنولوجيا فى عصرنا هذا تصنع المعجزات .

كررَّ فى صرامة :

ـ ماذا حدث هناك ؟!

لوَّحت بأصابعها فى الهواء ، مجيبة فى زهو :

ـ لقد عبثت بكل شىء .. حولت مسار إشارة التفجير ، ونقلت ترددها إلى جهاز الخدع الوهمية البصرية .

قال بمنتهى اللهفة :

ـ أتعنين أن الانفجار الذى رأياه ...

قاطعته ، وهى تتراجع فى مقعدها بزهو واضح :

- وهم .. خداع بصرى .. تكنولوجيا التماثل ، التى تبهر ملايين المشاهدين ، على شاشات السينما .

ثم مالت إلى الأمام مرة أخرى ، فى انفعال جارف ، مضيفة :

- أنا (تيا) ؟ حصلت على أوسكار الوهم والخداع ، بلعبة تفوقت بها على الزعيمة نفسها .

سألها مستر (X) فى شغف شديد :

- إذن فالانفجار لم يقتلهم .

هزت رأسها نفيًا فى بطء ، وحملت شفتاها ابتسامة واثقة مزهوة ، وهى تجيب ، ضاغطة كل حرف من حروف عبارتها :

- نعم .. الانفجار لم يقتلهم .

سألها فى سرعة ، حملت كل لهفته واهتمامه :

- وأين هم الآن ؟!

التقطت نفسًا عميقًا ، وتراجعت فى ذلك المقعد الأليكترونى ، فى بطء وثقة ، وهى تقول :

- هذا يتوقف على الثمن .

عبارتها جعلته يستعيد حزمه وصرامته ، وهو يقول :

- الثمن ؟!

هزت كتفيها الرقيقين ، وهى تقول :

- بالطبع يا عزيزى مستر (X) .. إنها أبسط معادلة ، فى الكون كله .. أنا أمتلك بضائع قيمة ، ترغب أنت فى الحصول عليها بشدة ، فمن الطبيعى إذن أن تدفع ثمنها .. وبسخاء .

سادت بينهما فترة طويلة ، من صمت ثقيل ، قبل أن يقول هو فى صرامة :

- ومن أدراك أننى أرغب فى الحصول عليها .

انطلقت من حلقها ضحكة عالية مجلجلة ، استفزت كل مشاعره ، قبل أن تقول فى سخرية :

- لو أنك لاترغب فى هذا ، فلدى مشترون آخرون ، لديهم استعداد لدفع الثمن ، والحصول على البضائع فورًا .

أحنقه أن أشارت الشاشة الأليكترونية أمامه إلى أنها صادقة ، فى قولها هذا ، فتراجع فى مقعده ، قائلاً ، فى لمحة عصبية ، لم يمكنه إخفاءها :

ـ ولماذا يرغب أى مخلوق ، فى الحصول على أربعة من رجال المخابرات المصرية المصابين .

هزت كتفيها الرقيقين ، قائلة :

ـ لو أنك لاترغب فى الحصول عليهم فهذا شأنك ، ولكن الآخرين يرون أن لهم قيمة كبيرة ، وخاصة بعد أن شفيت إصاباتهم أو كادت ، مما يجعل المخابرات المصرية نفسها مستعدة ، لدفع أى ثمن كان ، فى مقابل استعادتهم ، و ...

قاطعها بسؤال يحمل كل اللهفة :

ـ وكيف أخرجتيهم من هناك ، فى حين كانت هناك قوات هائلة ، تحيط بالجزيرة كلها .

صمتت لحظة ، قبل أن تهز كتفيها مرة أخرى ، قائلة :

ـ ليس هذا من شأنك .

أوضحت الشاشة الرقمية ، عبر المجسات الأليكترونية ، أنها تخفى شيئًا ما ، فمال إلى الأمام ، دون أن يخرج وجهه من دائرة الظل ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ماذا لو أننى استدعيت فريقًا من رجالى المتخصصين ، وطلبت منهم انتزاع المعلومات منك بالقوة ، ومعرفة كل ما أريد معرفته منك .

صمتت لحظة ، وهى تتطلع إليه فى تحد ، قبل أن تقول فى صرامة مماثلة :

ـ يمكنهم أن يحاولوا .

قال فى سخرية :

ـ هل تعتقدين أن باستطاعتك الصمود أمامهم .

عادت تهز كتفيها ، قائلة :

ـ بل على العكس .. قد ألقى مصرعى بين أيديهم بسرعة ؛ لأن العقار الذى تم حقنى به ، يقلل من قدرتى على احتمال الألم إلى حد كبير ، وعندئذ ستخسر أنت الصفقة كلها ، يا عزيزى مستر (X) ، ويفوز بها خصومك .

مرة أخرى ، نقلت المجسات الأليكترونية ما يشير إلى أنها صادقة ، فاحتقن وجه مستر (X) فى غضب ، وهو يقول :

ـ ومن أدرانى أنها ليست خدعة ؟!

أطلقت ضحكة ساخرة رفيعة ، وقالت :

ـ وما فائدة كل أليكترونياتك هذه إذن ؟!

أحنقه جوابها ، مع كل ما يحمله من منطق ، فسيطر عليه الصمت بضع لحظات ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ دعينا نراجع معلوماتنا أولاً .

ارتفع حاجباها فى دهشة ، وهى تقول :

ـ ولكننا لم نتفق ماليًا بعد .

قال بمنتهى الصرامة :

ـ مراجعتنا هذه ستحسم كل الأمور المالية .

صمتت بضع لحظات ، وكأنما تدير الأمر فى رأسها ، قبل أن تقول :

ـ فليكن .. ما الذى تريد مراجعته بالضبط ؟!

قال فى اهتمام شديد :

ـ لقد أنقذت وتحفظت على أربعة من رجال المخابرات المصرية ؟

أومأت برأسها إيجابا ، وقالت ، فى شىء من الضجر :

ـ نعم ، وهم على وجه التحديد : خبير الكمبيوتر (شريف) ، وخبيرة المفرقعات (ريهام) ، وخبير التزييف

والتزوير (قدرى) ، و (منى) ، رفيقة (أدهم صبرى) ، وجميعهم بحالة جيدة حاليًا ، و ...

قاطعها بمنتهى اللهفة :

ـ وماذا عن (أدهم صبرى) نفسه ؟!

صمتت (تيا) بضع لحظات ، ثم تراجعت فى مقعدها الأليكترونى ، مجيبة :

ـ لست أعلم أى شىء عنه .

وانعقد حاجبا مستر (X) بمنتهى الشدة ، عندما نقلت المجسات الأليكترونية إلى الشاشة الرقمية إشارة تؤكد أنها كاذبة ..

كاذبة تمامًا .

* * *



٣ ـ من الفرات ..

بدا الجنرال (أيكون) عصبيًا إلى حد ما ، وهو يستقبل رجل المخابرات الإسرائيلى (إيتان كوهين) ، فى مكتبه فى بغداد ، وانتقل توتره إلى صوته ، مع قوله :

ـ كنت أتمنى استقبالك بالترحاب يا سيد (كوهين) ، ولكن الواقع أنك قد وصلت فى مرحلة شديدة التوتر بالفعل .

أجابه (إيتان) ، فى خبث واضح :

ـ ربما يمكننى المعاونة على تجاوزها يا جنرال .

لوّح الجنرال (أيكون) بيده فى الهواء ، وهو يقول :

ـ لست أظن أحدًا بإمكانه هذا يا سيد (كوهين) .. لقد بذلنا كل ما بوسعنا ، واستعنا بكل الوسائل المتاحة ، حتى الأسلحة المحرمة دوليًا ، ولكن المقاومة لا تتوقف أو تستسلم أبدًا !

وانطلقت من أعماق صدره زفرة ملتهبة ، مليئة بالتوتر والمرارة ، قبل أن يضيف :

ـ لا يمكننا فهم أولئك العراقيين أبدًا !! إننا نقتل العشرات منهم كل يوم ، دون أن تتوقف مقاومتهم أو تتراجع لحظة واحدة .

ارتسمت ابتسامة باهتة ، على شفتى (كوهين) ، على الرغم من نبرة الضيق ، التى ملأت صوته ، وهو يقول :

ـ لو أن هذا يوقف مقاومتهم ، لكتب لنا الاستقرار فى (إسرائيل) ، منذ نصف قرن .

رمقه الجنرال (أيكون) بنظرة صارمة ، قبل أن يقول بلهجة جافة :

ـ أخبرونى فى القيادة أنك ستأتى ، وأنه من المفترض أن أعاونك فى أمر ما ، ولكنهم لم يحددوا هذا الأمر بالضبط .

استعاد (إيتان) لمحته الخبيثة ، وهو يقول :

ـ إنه أمر بسيط للغاية يا جنرال .

غمغم (أيكون) فى توتر :

ـ أشعر بالقلق دومًا ، كلما ردّد أحدهم هذه الكلمة .

واصل (إيتان) ابتسامته الخبيثة ، مع قوله :

ـ ولكنه أمر بسيط بالفعل يا جنرال ، فلقد أرسلتنى إدارتى ؛ للحصول على قطعة أرض هنا .

انعقد حاجبا الجنرال (أيكون) ، وهو يقول فى توتر :

ـ قطعة أرض ؟!

أجابه (إيتان) فى سرعة ، وكأنما يخشى أن يمنحه فرصة ، للتردد أو التفكير :

ـ نعم يا جنرال .. قطعة أرض تكفى ؛ لإقامة مقر مناسب (للموساد) هنا .

هتف الجنرال مستنكرًا :

ـ هنا ؟! فى (بغداد) ؟!

أشار (إيتان) بيده ، قائلاً :

ـ نحن لانُصِرُّ على هذا .. يمكننا أن نقيم المقر فى (الموصل) ، أو (الفالوجة) ، أو ...

قاطعه الجنرال فى حدة :

ـ مستحيل !

تراجع (إيتان) فى مقعده بمنتهى الهدوء ، ورفع حاجبيه بدهشة مصطنعة ، وهو يقول :

ـ مستحيل !! عجبًا ! ما من مسئول واحد ، فى قيادتك كلها ، استخدم هذا المصطلح ، عندما تقدمنا بعرضنا يا جنرال .

قال الجنرال ، فى شىء من الخشونة :

ـ عرضكم أم مطلبكم يا سيد (كوهين) ؟!

أجابه (كوهين) بنفس الخبث :

ـ بل عرضنا يا جنرال .. عرض وافقت عليه الإدارة الأمريكية ، ورأت فيه خدمة لمصالحها فى المنطقة .

انعقد حاجبا الجنرال (أيكون) ، وتطلَّع إليه بضع لحظات ، فى توتر شديد ، قبل أن ينهض من مقعده ، ويتجه نحو نافذة حجرة مكتبه ، ويتطلَّع عبرها بضع لحظات ، ثم يقول فى توتر :

ـ هذا الأمر سيجر علينا متاعب لاحصر لها ، ومشكلات ستزيد الطين بلة ، إلى حد قد نعجز معه عن المواجهة ، والمواصلة .

نهض (إيتان) ، وهو يقول فى حزم :

ـ أنا هنا ، لمواجهة كل المتاعب .

التفت إليه الجنرال ، قائلاً فى سخرية متوترة :

ـ أنت ؟! وحدك ؟!

شد (إيتان) قامته ، وهو يجيب فى حزم :

ـ نعم .. أنا .. ولكننى لست وحدى .

استدار إليه الجنرال (أيكون) بجسـده كلـه ، وهو يقول فى توتر :

ـ لست وحدك ؟ ما الذى ينبغى أن يعنيه هذا ؟!

أجابه (إيتان) فى حزم :

ـ أنا هنا ، علـى رأس فرقـة مـن أقـوى وأمهر رجالنـا ، وأشدهم قسوة وصرامـة ، بهدف السعى لتحقيق الشـطر الأول ، من حلم (إسرائيل) الدائم .

سأله الجنرال ، فى حذر شديد :

ـ أى حلم ؟!

شدّ قامته أكثر ، وهو يجيب :

ـ « من الفرات إلى النيل ، وطنكم يا بنى (إسرائيل) .. » إنه الشعار الذى يحفظه ، ويحلم به كل يهودى ، من أقصـى الأرض إلى أقصاها .

تطلّع الجنرال إلى وجهه بضع لحظات ، قبل أن يقول فـى عصبية :

ـ وهل سيتحققُ الحلم ، بمبنى واحد للموساد هنا ؟!

استعاد (إيتان) ابتسامته الساخرة ، وهو يقول :

ـ المبنـى مجـرد بدايـة يـا جـنرال ، وستتبعه مبـان ، ومنشآت ، وطرق ، ومواصلات .

ثم مال نحوه ، مضيفًا بلهجة خاصة :

ـ ولن يمضى وقت طويل ، حتى تتبعه دولة بأكملها .

اتسعت عينا الجنرال عن آخرهما ، وارتسـم الذعر علـى ملامحه لحظة ، عندما استوعب ما يعنيـه رجل (الموساد) الإسرائيلى ، ثم لم يلبث حاجبـاه أن انعقدا فـى شدة ، وهو يقول فى عصبية :

ـ عجبًا ! ألا تكفيكم الأرض التى انتزعتموها مـن العرب بالفعل ؟! إنكم أقل من عشرة ملايين نسمة !!

هزّ (إيتان) كتفيه ، قائلاً :

ـ إننا قادرون على إعمار الأرض كلها .

وتألقت عيناه على نحو عجيب ، وهو يضيف :

ـ لو أننا نملكها .

التقط الجنرال الأمريكى نفسًا عميقًا ، وكأنمـا يحـاول تهدئة أعصابه ، وهو يقول بصوت مختنق :

ـ فهمت ؟

ثم عاد إلى مكتبـه ، فـى عصبيـة واضحـة ، قبل أن يستطرد :

ـ فى هذه الحالة ، ينبغى أن تعرف آخر المستجدات هنا ، فلم نعد نواجه المقاومة العراقية وحدها ، وإنما ...

قاطعه (إيثان) ، بنفس الابتسامة المستفزة :

ـ وإنما تواجهون أيضًا خصمًا مجهولاً ، يمتلك مهارات مدهشة ، تفوق كل وصف .. أليس كذلك ؟!

حدق فيه الجنرال (أيكون) بكل دهشة الدنيا ، قبل أن ينفعل ، ويقول فى عصبية :

ـ المفترض أن هذه المعلومات ، على أعلى درجة من السرية .

بدا (إيثان) مزهوًا ، وهو يقول :

ـ إنها كذلك بالفعل .

أطل الاستنكار ، من كل خلجة من خلجات الجنرال ، ولكن (إيثان) استدرك فى سرعة :

ـ ولكن لا تقلق نفسك بهذا يا جنرال ، وأخبرنى ، كيف يمكن أن نتعاون معًا ، للإيقاع بذلك الخصم المجهول ، الذى يسبب لكم كل هذه المشكلات ؟!

رمقه الجنرال بنظرة جافة ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويشبك أصابع كفيه أمامه ، قائلاً :

ـ أخبرنى أنت أولاً : كيف يمكنكم مواجهة ذلك الخصم ، ونحن وأنتم نجهل كل شىء عنه ؟!

اتسعت ابتسامة (إيثان) ، وبدت أكثر استفزازًا وثقة ، وهو يقول :

ـ معذرة ياسيدى الجنرال .. أنا مضطر لتصحيح العبارة للأسف ، فربما تجهلون أنتم كل شىء عنه .. أما نحن فلا .

انتفض جسد الجنرال (أيكون) ، مـع ذلك التصريح الخطير ، وهب من مقعده ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ أيعنى هذا القول أنكم تعرفون من هو ؟!

عاد (إيثان) يشد قامته ، وهو يجيب :

ـ بكل تأكيد .

نطقها بكل الحزم ..

وكل الحسم ..

وكل الثقة ..

وتفجرت اللهفة ، فى كل ذرة من كيان الجنرال ..

كل لهفة الدنيا ..

على الأقل ..

* * *

لم ينقطع دوى الانفجارات لحظة واحدة ، فى مدينة (الفالوجا) العراقية ، مع الهجمات الشرسة الوحشية ، لقوات الاحتلال الأمريكية ، على معاقل ومخابئ رجال المقاومة البواسل ، الذين دفعهم إيمانهم إلى القتال باستماتة ، ومواجهة العدو بصدور عارية مكشوفة ، بعد أن نفدت ذخيرة بعضهم ، وأثخنت الجراح البعض الآخر ..

ولأن التفوق العددى المبالغ يحسم المعركة دومًا ، وخاصة عندما تضاف إليه تقنية عسكرية بالغة التطور ، فقد

نجحت القوات المحتلة ، بعد قتال ضارٍ ، فى محاصرة أحد مكامن المقاومة ، والسيطرة عليه ، حتى سقط الأبطال فى قبضتهم ..

كان مشهدًا مروعًا ، تناثرت فيه جثث مقاتلى المقاومة ، الذين صرعتهم صواريخ الطائرات ، وقذائف الدبابات ، وانتشرت أشلاء بعضهم فى المكان ، فى حين سقط الباقون جرحى ومصابين ، وقوات الاحتلال تنقض عليهم ، وتعاملهم بمنتهى القسوة والوحشية ، وهى تدفعهم أمامها دفعًا ، نحو شاحنات الاعتقال الضخمة ..

كانوا صورة سوداء للاحتلال ، بأبغض معانيه ومساوئه ، دون أدنى مراعاة لقواعد الإنسانية والآدمية ، على الرغم من تصريحات مسئوليهم ، التى تملأ الصحف ، وتتردد عبر كل وسائل الإعلام ، حول الحرية ، والديمقراطية ، وحقوق الإنسان الضائعة ..

وعبر هذا المشهد الرهيب ، الذى تدمى له القلوب ، ومع الحصار العنيف الشرس ، ظهرت سيارة ذلك الجنرال الأمريكى ، الذى لا يجهل جندى أمريكى واحد ، من قوات الاحتلال صورته وهيئته ..

وبكل قوته ، وفور ظهور السيارة ، شد قائد المجموعة قامته ، وضرب كعبيه ببعضهما البعض فى قوة ، هاتفًا :

ـ انتباه !

اعتدل الجنود كلهم بحركة حادة ، وتعلقت عيونهم جميعًا بالجنرال (أيكون) ، وهو يهبط من السيارة ، بشعره الأشيب ، وحاجبيه الكثين ، وملامحه الصارمة ، قبل أن يقول فى غضب أجش :

ـ ما الذى يحدث هنا بالضبط ؟!

أجابه قائد المجموعة فى سرعة :

ـ إنهم فريق من الإرهابيين ، أمكننا اعتقاله يا جنرال .

مطَّ الجنرال شفتيه فى امتعاض ، وكأنما يحنقه ما يراه ، وقال فى صرامة :

ـ بهذه الوسيلة ؟!

خُيِّل لقائد المجموعة أنه لم يستوعب العبارة جيدًا ، فتخلَّى عن وقفته العسكرية الصارمة ، وهو يقول :

ـ ماذا يا جنرال ؟!

أدار إليه الجنرال (أيكون) عينين ، حملتا كل غضب الدنيا ، وهو يقول فى شراسة :

ـ أتنقلونهم بهذه الوسيلة ؟!

مرة أخرى ، لم يفهم قائد المجموعة ما يعنيه هذا ، فارتبك قائلاً :

ـ أية وسيلة يا جنرال ؟! هذا ما نفعله بالأسرى دومًا ، و ...

« خطأ ! »

قاطعه الجنرال بتلك الصيحة الهادرة ، التى انتفض معها جسد قائد المجموعة ، وعاد يشد قامته فى توتر ، قبل أن يتابع الجنرال :

ـ ألم تقرأ كُتيِّبَ التعليمات الرسمى يا هذا ؟! هناك قواعد معروفة ، للتعامل مع الأسرى ، وفقًا لمعاهدة (جنيف) .

قفزت دهشة قائد المجموعة إلى ذروتها ، وهو يحدق فيه ، هاتفًا :

ـ معاهدة ماذا ؟!

زمجر الجنرال ، وهو يقول فى شراسة :

- معاهدة (جنيف) لمعاملة الأسرى .. ألم تسمع بها يا ماجور ؟! ألم تدرسها فى أكاديميتك ؟! المفترض أن تعاملهم معاملة إنسانية ، وأن تنقل الجرحى والمصابين منهم إلى المستشفيات الميدانية فورًا ، أليس هذا ما تعلمته ؟!

بدا لقائد المجموعة وكأن جهازه السمعي كله قد أصيب بالقلق ، وحدّق فى الجنرال بشىء من الاستنكار ، مغمغمًا :

- بلى يا سيدى الجنرال ، ولكن لم يحدث أبدًا أن ...

قاطعه الجنرال فى عنف :

- أيعنى هذا أنه لن يحدث أبدًا ؟!

لم يفهم قائد المجموعة الأمر أو يستوعبه ، فاعتدل فى توتر ، قائلاً :

- أوامرك يا جنرال ؟!

أشار الجنرال بيده فى غطرسة غاضبة ، قائلاً :

- سلم سلاحك لمن يليك رتبة ، فستتم إحالتك إلى محاكمة عسكرية ، لتجاوزك فى معاملة الأسرى .

قال الرجل ، فى توتر شديد :

- وفقًا لما لدينا من تعليمات ، هم ليسوا أسرى يا جنرال ، بل إرهابيين مخالفين للقانون ، و ...

قاطعه الجنرال بصيحة هادرة :

- هل ستناقش أوامرى ؟!

انتفض جسد الرجل فى انفعال ، وهو يقول :

- ولكن هذا حقى يا جنرال .. قواعد الحرية والديمقراطية ، تقول : إن ...

قاطعه الجنرال ، بصيحة أكثر عنفًا :

- قواعد ماذا ؟!

تراجع الرجل بمنتهى الدهشة ، وسرت موجة تحفز عجيبة ، فى كل جندى من رجاله ، مع نبرة السخرية الواضحة ، فى صوت الجنرال ، الذى أطلق صيحته ، ثم اتجه فى صرامة نحو حاملة الأسرى ، متابعًا :

- ستكون محظوظًا يا هذا ، لو انتهى بك الأمر مساعدًا ، فى وحدة ضئيلة الشأن ، فى أعماق (ألاسكا) ، عندما أنتهى منك .

لم يفهم قائد المجموعة ورجاله ، لماذا اتجه الجنرال نحو تلك الحافلة الضخمة ، مباشرة ، ولا لماذا صعد إليها ، بتلك الخفة ، التى لا تتناسب قط مع ما اعتادوه عنه ، ثم فوجئوا به جميعًا يدير محركها ، فانتفض قائدهم ، هاتفًا :

ـ سيدى الجنرال .. مهلاً .. هناك سائق ل ...

ولكن الجنرال لم يمهله ليتم عبارته ، وإنما أدار محرك الحافلة المصفحة ، التى تضم مجموعة أسرى المقاومة كاملة ..

وانطلق بها بسرعة ..

وبكل ذهول الدنيا ، اتسعت عيون الرجال ، وهتف أحدهم :

ـ مستحيل ! مستحيل أن يكون هذا الجنرال (أيكون) .

تفجّرت عبارته كالقنبلة ، فى رأس قائد المجموعة ، الذى استعاد أسلوب الجنرال الساخر ، وعباراته القوية ، وقامته المديدة ، وبنيانه القوى ، وقارن كل هذا بالمسجل فى ذاكرته عنه ، قبل أن يرفع فوهة مدفعه الآلى ، صائحًا :

ـ إنه ليس الجنرال (أيكون) بالفعل .. أوقفوه .. أوقفوه بأى ثمن ...

وهنا ، وبكل الانفعال المشتعل فى أعماقهم ، أطلق الجنود رصاصات مدافعهم الآلية ، خلف الحافلة المصفحة ، وانطلقوا محاولين اللحاق بها ، إلا أنها كانت قد اختفت من المنطقة كلها .. تمامًا ..

وفى غضب مسعور محموم ، انتشر جنود الاحتلال ، ينبشون الأرض نبشًا ، بحثًا عن حافلتهم المصفّحة ، وأسراهم ..

وعن ذلك الخصم الرهيب ..

« إنه هو .. »

هتف قائد المجموعة بالكلمة ، بكل غضب الدنيا ، وهو يندفع نحو السيارة ، التى أتى بها ذلك الجنرال الزائف ، ويصوّب فوهة مدفعه الآلى إلى سائقها ، صائحًا :

ـ من هذا الرجل الذى أحضرته ؟! من ؟!

وارتجف السائق ، وسرى الرعب فى كيانه كله حتى النخاع ، دون أن ينبس ببنت شفة ، أو ينطق حرفًا واحدًا ..

هذا لأنه ، وبكل بساطة ، لم يكن يملك جوابًا ..

أى جواب ..

* * *

« أقسم أننى لا أعرف شيئاً يـا سيّدى الجنـرال .. أى شىء ! » ..

هتف السائق بالعبارة ، فى انهيار كامل ، وهو يقف أمـام الجنرال (أيكون) ، فى مكتب هذا الأخير ، الـذى انعقد حاجباه الكثّان بمنتهى الشدة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ اهدأ وتماسك يا رجل ، وقص علىّ الأمر منذ بدايته مرة أخرى .. وبكل التفاصيل .

ازدرد السائق المسكين لعابه فى صعوبة ، فى محاولة عابثة ، لترطيب حلقه الجاف ، وقبل أن يقول بكلمات مرتجفة :

ـ لقد فوجئت به يا سيّدى الجنرال .. كنت أحصل على راحتى ، عندما وجدتك أمامى فجأة .

انتفض (أيكون) ، هاتفاً فى غضب :

ـ وجدتنى ؟!

استدرك الجندى فى ذعر :

ـ أقصد وجدته يا سيّدى .. ولكن .. ولكننى تصوّرته لحظتها أنت .

حمل صوت الجنرال كل توتره ، وهو يقول :

ـ إلى هذا الحد ؟!

بدت الحيرة على الجندى ، وهـو يبحث عن جواب مناسب ، لا يغضب الجنرال ، ولكن (إيثان) أشار إليـه ، قائلاً فى اهتمام :

ـ أكمل يا رجل .

رمقه الجندى بنظرة توتر قلقة ، فأشار إليه (أيكون) ، قائلاً فى صرامة :

ـ أكمل يا رجل .

ازدرد الجندى لعابه مرة أخرى ، وقال فى توتر :

ـ لم يكن فى المعتاد أن يفاجئنى الجنرال فى حجرتى ، إلا أنه لم يكن من حقى أبداً مناقشة ما يفعله القادة ، لذا فقد أطعته على الفور ، وأخرجت السيارة ، وانطلقت بها وبه ، إلى حيث أمرنى .

قال الجنرال (أيكون) مستنكراً :

ـ إلى ساحة قتال ؟!

هزّ الجندى كتفيه فى حيرة مرتبكة ، وهو يقول :

ـ هذا ما أمرنى به يا جنرال .

انعقد حاجبا الجنرال فى شدة ، وهمّ بقول شىء ما ، عندما نهض (إيتان) فجأة ، ليسأل الجندى فى اهتمام :

ـ ولكنك لم تشك فى أمره قط .. أليس كذلك ؟!

أجابه الجندى ، فى حذر شديد ، وعيناه معلقتان بالجنرال :

ـ الجميع لم يشكوا فى أمره قط ، حتى انطلق بحافلة الأسرى المصفحة أمام أعينهم .

مطّ (إيتان) شفتيه ، وأومأ برأسه ، مغمغمًا :

ـ عظيم .. عظيم .

ارتفع حاجبا الجنرال فى دهشة مستنكرة لقوله ، فى حين ارتبك الجندى بتوتر شديد ، والتفت بحركة مذعورة إلى الجنرال ، الذى هبّ من مقعده ، هاتفًا :

ـ أى قول هذا يا سيد (كوهين) ؟!

أشار إليه رجل المخابرات الإسرائيلى ، قائلاً :

ـ رويدك يا جنرال .. سنناقش كل هذا فيما بعد .

نطقها بصرامة آمرة ، شأن رجل لم يعتد مناقشة أوامره ، ثم التفت إلى الجندى ، قائلاً :

ـ انصرف أنت ، واتركنا وحدنا .

تردد السائق فى قلق ، وتطلّع إلى الجنرال ، الذى قال فى عصبية :

ـ ألم تسمع ما قاله السيد (كوهين) .

أسرع السائق ينصرف ، بعد أن أدى التحية العسكرية ، ولم يكد يغلق الباب خلفه ، حتى انفجر الجنرال ، قائلاً فى غضب :

ـ أى رد فعل هذا بالضبط يا سيد (كوهين) ؟! هل يسعدك ما فعله بنا ذلك المجهول ؟!

تطلّع إليه (إيتان) بابتسامة باهتة ، وهو يجيب :

ـ لو أردت جوابًا صريحًا ، فهو نعم .

مال رأس الجنرال إلى الأمام ، وهو يحدق فيه مستنكرًا ، فتابع فى شىء من الحماس :

ـ فما حدث اليوم ، يعد بالنسبة لى دليلاً ، على أنه ذلك المجهول ، هو الشخص الذى توقعناه تمامًا .

قال الجنرال متوترًا :

ـ أتقصد ذلك المصرى ؟!

أومأ (إيتان) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ بالضبط .. (أدهم صبرى) .. الوحيد فى هذا العالم الذى يمكنه أن ينتحل شخصيتك ، على نحو قادر على خداع سائقك وضباطك وجنودك ، فى ساحة المعركة .

هزّ الجنرال رأسه نفيًا فى قوة ، وهو يقول :

ـ مستحيل !! لقد تحريت من القيادة العليا فى (واشنطن) ، وتحدثت شخصيًا إلى مستشارة الأمن القومى ، التى أكّدت لى ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أن (أدهم صبرى) هذا قد لقى مصرعه ، فى انفجار عنيف ، فى قلب المحيط الأطلنطى .

استثارته تلك الابتسامة الساخرة ، التى حملها ركن شفتى رجل المخابرات الإسرائيلى ، وهو يقول :

ـ حقًا !! يبدو أن مستشارة الأمن القومى قد اعتادت الكذب ، حتى أنها لم تعد قادرة على الصدق .

قال الجنرال فى غضب :

ـ أى قول سخيف هذا ؟!

تجاهل (إيتان) عبارته تمامًا ، وهو يقول :

ـ فمن الناحية الرسمية ، ووفقًا لبروتوكول تبادل المعلومات ، بيننا وبين مخابراتكم المركزية ، تعتبر إدارتكم أن (أدهم صبرى) ، ما زال على قيد الحياة ؛ نظرًا لأنه لم يتم العثور على ما يثبت مصرعه ، حتى هذه اللحظة .

قال الجنرال فى عصبية :

ـ وأى دليل ينتظرون على مصرعه ؟! لقد كان انفجارًا مروّعًا كما يقولون .. ربما تبخرت جثته تمامًا .

أطلق (إيتان) ضحكة قصيرة ساخرة ، قبل أن يقول :

ـ لا أحد يتبخر ، مهما بلغت قوة الانفجار يا جنرال .. هناك حتمًا ما يتبقى .. قطعة عظام .. بقعة دم .. إصبع محترق .. أى شىء .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ـ هذه مزايا التكنولوجيا الحديثة يا جنرال .. الجينات الوراثية يمكنها حسم العديد من الأشياء .

همهم الجنرال فى توتر :

ـ هذا لو أنك تمتلك ما تقارن به ما تعثر عليه .

تألقت عينا (إيتان) ، وهو يقول :

ـ بالضبط .

ثم دسّ كفيه فى جيبى سرواله ، وكأنما يهم بإلقاء محاضرة دراسية ، قبل أن يتابع :

ـ ولهذا نشأ ذلك الفرع الجديد ، فى عالم الجاسوسية .. فرع الجاسوسية الجينية ، أو البيولوجية(*) ، وهو الفرع الذى...

استوقفه الجنرال بإشارة صارمة من يده :

ـ لست أميل إلى هذه التفاصيل العلمية التقنية .. كل ما أريد معرفته هو جواب سؤال واحد .. هل يمكنكم الإيقاع بذلك المجهول ، أيًا كانت هويته ؟!

(*) الجاسوسية البيولوجية : فرع مستحدث من علوم التجسُّس ، يعتمد على الحصول على عينات بيولوجية من الرؤساء والزعماء والقادة والمشاهير ، لتحديد تاريخهم وتوقعاتهم الوراثية والمرضية ، وتحديد هوياتهم عند اللزوم ، وبالذات فى حالات موتهم ، أو سقوطهم فى الأسر ، تمامًا مثلما حدث مع الرئيس العراقى السابق (صدام حسين) وولديه (عدى) و (قصى) .

صمت (إيتان) بضع لحظات ، قبل أن يشد قامته ويعقد كفيه خلف ظهره ، قائلاً :

ـ لو منحتنا كل السلطات اللازمة ، فالجواب هو نعم يا جنرال .. بما نمتلك من خبرة ، وما نحمل من معدات بالغة الحداثة ، يمكننا أن نوقع بذلك المجهول .

ثم رفع سبابته أمام وجهه ، مستدركًا بمنتهى الصرامة :

ـ ولكن بشرط واحد .

انتبهت كل حاسة من حواس الجنرال ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أى شرط هذا ؟!

شد (إيتان) قامته أكثر ، وهو يقول :

ـ إذا ما أوقعنا بذلك المجهول ، فهو لنا .

انعقد حاجبا الجنرال (أيكون) فى شدة ، وهمّ بالاعتراض على هذا القول ، إلا أنه أدار الأمر فى رأسه بسرعة ، ثم اعتدل ، قائلاً فى حزم :

ـ فليكن .

اتسعت ابتسامة (إيتان) ، وحملت كعادته لمحة من الخبث ، وهو يقول :

ـ فى هذه الحالة ، يمكننا البدء فورًا .

ومد يده ليصافح الجنرال ، إلا أن هذا الأخير تجاهل اليد الممدودة إليه تمامًا ، وهو يسأله ، فى صرامة عسكرية :

ـ وهل يمكننى أن أعرف مبدئيًا ، كيف يمكنكم أن تنجحوا فيما فشلنا فيه نحن ، بكل قوتنا وقواتنا ؟!

ارتسمت على شفتى (إيتان) ابتسامة ، حملت كل خبث واستفزاز الدنيا ، وهو يقول :

ـ دع الأيام المقبلة تجيب سؤالك هذا يا جنرال ، ولكن يكفى أن أخبرك الآن أننا سنبدأ من حيث انتهيتم أنتم .

انعقد حاجبا الجنرال الكثين ، وهو يتطلع إليه متسائلاً ، إلا أن (إيتان) لم يشف غليله أبدًا ، ولم يمنحه جوابًا لسؤاله ..

أى جواب ..

على الإطلاق .

* * *

٤ ـ الثمن ..

بكل خبث الدنيا ، ابتسمت الصينية الحسناء (تيا) ، وهى تعبر الطريق فى (ريودى جانيرو) البرازيلية ، وعيناها تلمحان ذلك الرجل ، الذى يتعقبها منذ أيام كظلها ، وتوقفت بضع لحظات أمام متجر شهير ، لبيع ملابس النوم النسائية ، قبل أن تندفع داخله بغتة ، وتغلق بابه خلفها فى سرعة ..

وارتبك مطاردها بحق ، عند هذه النقطة ، إذ كانت لديه أوامر صارمة ، بألا يدعها تغيب عن بصره لحظة واحدة ، منذ خروجها من منزلها فى الصباح ، وحتى عودتها إليه ..

ولكن ذلك المتجر كان نسائيًا خالصًا ، حتى أن واجهته كانت تحمل لافتة كبيرة بالبرتغالية(*) ، تمنع الرجال من دخوله ..

وكان على الرجل أن يتخذ قرارًا ..

إما أن يخالف القانون ..

أو تفلت منه الصينية ..

(*) معظم دول (أمريكا اللاتينية) تتحدث الإسبانية ، فيما عدا (البرازيل) ، فلغتها البرتغالية .

ولم يطل تردده وارتباكه ، وإنما اندفع نحو المتجر النسائى ، واقتحمه خلفها مباشرة ، وهو يهتف فى صرامة :

ـ شرطة.

أثار دخوله موجة من الهلع والارتياع ، فاندفعت نحوه مديرة المتجر ، صائحة فى غضب مستنكر محتج :

ـ كيف تقتحم المكان على هذا النحو ؟ حتى الشرطة ، لا يحق لها ...

قاطعها بمنتهى الصرامة ، وهو ينتزع مسدسه من حزامه :

ـ إننا نطارد صينية هاربة ، ولقد فرت إلى هنا ، و ...

قاطعته هى هذه المرة فى غضب :

ـ لم تفر إلى هنا ، وإنما تجاوزتنا فحسب .. لقد اندفعت عبر هذا الباب ، وعدت عبر المتجر ، لتخرج من الباب الخلفى .

انتفض جسده كله فى انفعال ، وهو يهتف :

ـ باب خلفى .

كان لديها الكثير لتقوله ، احتجاجًا على ما فعله ، إلا أنه لم يمنحها الفرصة لهذا ، وإنما انطلق بدوره نحو الباب الخلفى للمتجر ، ووثب عبره حاملاً مسدسه ، و ...

« لماذا تأخرت ؟! »

صدمته العبارة ، التى نطقتها (تيا) فى هدوء ساخر ، وهى تستند إلى جدار الشارع الخلفى الصغير خلف المتجر ، فاستدار إليها بحركة حادة ، جعلتها تبتسم متهكمة ، وهى تتابع بنفس الهدوء الساخر :

ـ من الواضح أنك تتناول الكثير من السكريات ، فى إفطارك يا هذا ، فأعصابك متوترة للغاية .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يرفع فوهة مسدسه نحوها ، مزمجرًا :

ـ إنك تعبثين بى .

هزت كتفيها فى لا مبالاة ، قائلة :

ـ على العكس .. إننى أحاول جعل مهمتك أبسط ، فبدلاً من أن تبذل جهدًا مضحكًا فى التخفى ، دعنا نسير جنبًا إلى جنب ، فليس لدى ما أخفيه عنكم .

ثم مالت نحوه ، مضيفة ، وابتسامتها الساخرة تتخذ هيئة مستفزة :

ـ لقد أبلغت زعيمكم كل ما لدى بالفعل .

استفزته ابتسامتها بشدة ، فقال بمنتهى الصرامة :

ـ وماذا لو أطلقت النار على رأسك الآن ، وأنهيت العملية كلها فى لحظة واحدة ؟!

قبل حتى أن تكتمل عبارته ، كانت هى قد تحركت بنشاط مدهش ، فوثبت تركل المسدس من يده ، ثم دار جسدها بحركة بالغة الرشاقة ، لتلتقطه فى الهواء ، قبل أن تهبط على قيد متر واحد منه ، وتصوّب المسدس إلى منتصف جبهته مباشرة ، قائلة فى سخرية :

ـ معذرة ! لم أسمع سؤالك جيدًا .. ماذا كنت تقول ؟!

حدّق الرجل فى فوهة المسدس ذاهلاً ، وسرت فى كيانه موجة مركّبة ، من الغضب ، والثورة ، والدهشة ، والاستنكار ، قبل أن تتحفز كل خلية فى جسده ، على نحو ملحوظ ، جعلها تطلق ضحكة ساخرة ، وهى تقول :

ـ آه .. من الواضح أنك قد نسيت السؤال .

بدا له لحظة أنها ستطلق النار على جبهته مباشرة ، إلا أنه فوجئ بها تدير المسدس فى يدها بمهارة مدهشة ، ثم تناوله إياه ، مضيفة :

ـ فليكن .. سأمنحك فرصة كافية لتتذكره .

التقط المسدس منها بمنتهى الحذر ، فى حين ظلت هى هادئة ، تبتسم ابتسامة ساخرة ، وهى تقول :

ـ والآن .. ما رأيك لو دعوتك لتناول قدح من القهوة ، أو قطعة من البيتزا ؟!

واتسعت عينا الرجل عن آخرهما ، بكل دهشة الدنيا ..

فتلك الصينية الحسناء الرقيقة المظهر ، التى تقف أمامه قوية متماسكة ، كانت تختلف عن أية فتاة عرفها فى حياته ..

تختلف تمامًا ..

* * *

رفع مدير المخابرات المصرية منظاره عن عينيه ، بعد أن راجع آخر التقارير الواردة من (العراق) ، وتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ فى كل مرة ، تزداد قناعتى بأن ذلك المجهول هو رجلنا .

بدا التردُّد على وجه نائبه ، فاستطرد المدير ، وهو يعتدل :

ـ ولكنك لا تشاركني هذا الاعتقاد .. أليس كذلك ؟!

التقط النائب نفسًا عميقًا ، وقال ، فى شىء من التوتر :

ـ الواقع يا سيادة الوزير ، أنه هناك ما يدفعنى إلى الشك فى هذا .

سأله المدير فى اهتمام :

ـ أتعنى ذلك الانفجار ؟!

هز النائب رأسه ، مجيبًا :

ـ بل أعنى أنه لم يحاول إجراء أية اتصالات معنا ، بوسائل مباشرة ، أو غير مباشرة ، طوال الأشهر الثلاثة الماضية .

عاد المدير يتراجع فى مقعده ، وهو يفكر فيما قاله نائبه ..

نعم .. لو أن ذلك المجهول هو (ن ـ ١) ، فلماذا لم يحاول الاتصال بجهاز المخابرات المصرية قط ؟!

لماذا لم يشر إلى أنه ما زال على قيد الحياة ؟!

لماذا ذهب من الأطلنطى إلى (العراق) مباشرة ؟!

وكيف ؟!

إنه لم يفقد ذاكرته بالتأكيد ، كما حدث سابقًا ، وإلا لما فعل ما يفعله الآن ..

ماذا حدث إذن ؟!

بل ماذا يحدث ؟!

خبراته كلها تؤكد أنه من المستحيل ألا يكون ذلك المجهول هو (ن ـ ١) !!

من سواه يمتلك تلك المهارات ؟!

من غيره يستطيع التنكر ، على هذا النحو المذهل ؟!

من ؟!

من ؟!

تحوّل السؤال ، الذى تردد فى ذهنه ، إلى حالة من الانتباه والاهتمام الكاملين ، وهو يقول لنائبه :

ـ وماذا عن مدرسة المخابرت ؟!

انعقد حاجبا النائب ، وهو يقول فى حذر :

ـ ماذا عنها ؟!

قال المدير ، فى شىء من الحماس :

ـ فى إحدى مراحلها ، قام (أدهم) بتدريب عدد من أفضل عناصر المخابرات العربية ، وانتقى منهم مجموعة خاصة جدًا ، تفوّقت على نحو ملحوظ(*) .

شاركه النائب حماسه ، وهو يقول :

ـ بالطبع يا سيادة الوزير .. إننى أذكر هذا جيدًا .

قال المدير فى حزم :

ـ عظيم .. أريد قائمة بأسماء تلك المجموعة الخاصة ، التى تعهدها (أدهم) برعايته .

(*) سيرد ذكر هذه العملية ، فى أحد الأعداد الخاصة القادمة بإذن الله .

قال النائب ، وقد تضاعف حماسه :

ـ فورًا يا سيادة الوزير .

قالها ، واندفع لتنفيذ الأمر ، فى حين بذل المدير جهدًا حقيقيًا ، للاسترخاء فى مقعده ، وهو يطرح على نفسه سؤالاً عسير الجواب ...

لو لم يكن ذلك المجهول هو (ن ـ ١) ، فمن يكون ؟!

من ؟!

من ؟!

* * *

« قائمة لا تتعدى الأسماء الثلاثة .. » ..

نطق مدير المخابرات المركزية الأمريكية العبارة ، فى صوت خافت ، لم يخف توتره ، وهو يشير إلى الصورة ، التى يعرضها ذلك الجهاز الرقمى ، ذو الشاشة الكبيرة ، قبل أن يستطرد ، متوجهًا بحديثه إلى كبار معاونيه :

ـ رجل المخابرات السورى (أكرم كيلانى) ، الذى جشّم الإسرائيليين خسائر فادحة ، فى جنوب (لبنان) ، والمغامر الثائر الفرنسى (آلان موريه) ، الذى واجهنا فى (الصومال)

و(أفغانستان) ، وقاتل جنبًا إلى جنب ، مع المقاتلين هناك ، دون أن تنجح فى الظفر به أبـدًا ، وأخيرًا رجل المخابرات المصرى (أدهم صبرى) ، الذى لم يحسم أمره بعد ، ولم تصدر أية تقارير رسمية حاسمة بشأن ..

انبرى أحد مساعديه ، يقول فى حزم :

- يمكننا استبعاد الفرنسى فورًا ، فلقد أجمع كل الشهود ، على أن ذلك المجهول يتحدث العربية بطلاقة تامة .

هزّ مدير المخابرات الأمريكية رأسه نفيًا ، وهو يقول :

- لا يمكننا استبعاد أحد ؛ لأن الفرنسى (موريه) أيضًا يتحدث العربية بطلاقة ؛ فقد قضى شطرًا من حياته فى (الجزائر) ، ووالدته أيضًا من أصل عربى .

قال رجل آخر :

- ولكنه لا يجيد التنكر بهذه البراعة .

وافقه مدير المخابرات الأمريكية بإيماءة من رأسه ، وهو يقول :

- بالضبط .. ولكن (أكرم كيلانى) و (أدهم صبرى) يجيدان هذا ، بنسب متفاوتة .

هتف ثالث :

- إنه السورى إذن .

أشار إليه مديره ، قائلاً :

- ولماذا لا يكون المصرى ؟!

تراجع الرجل فى مقعده بتوتر ، وتبادل نظرة عصبية مع رفاقه ، قبل أن يقول :

- ولكن المصرى ...

لم يستطع إتمام عبارته ، بعد المناقشات الطويلة ، التى دارت بهذا الشأن ، فهزّ رأسه فى حدة ، متابعًا :

- ما زلت عاجزًا عن الاقتناع بهذا .

لوّح مدير المخابرات الأمريكية بسبّابته ، قائلاً :

- الأمر لا يخضع للأهواء والمشاعر ، والقناعات الشخصية يا رجل ؛ فالموقف فى (العراق) بالغ الخطورة ، وستتضاعف خطورته ، إذا ما فاز الرئيس بفترة رئاسة ثانية ، فى الانتخابات القادمة ، خاصة وهو يعتزم ، حسبما بلغنى ، تعيين مستشارة الأمن القومى ، فى منصب وزيرة الخارجية ،

بكل ما تحمله فى نفسها من مقت وكراهية للعرب ، مما سيزيد الطين بلة حتمًا ، ويشعل الأمور أكثر وأكثر ، فى منطقة الشرق الأوسط كلها .

تبادل الرجال نظرة شديدة التوتر ، قبل أن يقول أحدهم :

ـ فليكن .. دعونا نفترض أنه أحد رجلين .. (أكرم كيلانى) ، أو (أدهم صبرى) .. ما الخطوة التالية إذن ؟!

تراجع مدير المخابرات الأمريكية فى مقعده ، وهو يقول :

ـ الخطوة التالية ، سيقوم بها الأصدقاء .

بدت الحيرة على الوجوه ، وردد أحد الرجال فى حذر :

ـ الأصدقاء ؟!

أجابه المدير فى صرامة :

ـ الإسرائيليون .

ارتسم مزيج من التوتر والغضب على الوجوه ، وقال أحد الرجال ، فى شىء من العصبية :

ـ ولماذا يقوم بها الإسرائيليون ؟! إننا نمتلك الكفاءة اللازمة ، للقيام بأية خطوات مطلوبة .

فجَّر قوله عاصفة من الهمهمات المتوترة ، حول مائدة الاجتماعات ، فى حين لاذ مديرهم بالصمت ، وهو ينقل بصره بين وجوههم جميعًا ، قبل أن يضرب سطح المائدة براحته ، قائلاً بمنتهى الصرامة :

ـ كفى .

استدارت إليه العيون كلها ، فنهض من مقعده ، مواصلاً :

ـ على الرغم من ثقتكم التامة فى قدراتنا ، والتى تبلغ عن بعضكم حد الزهو والتعالى ، إلا أننى واثق من أن المواجهة مع ذلك المجهول فى (العراق) ، ستكون أعنف وأشق من كل تصوراتكم .. بل ولست أبالغ لو قلت : إنها ستفوق أبشع كوابيسكم .

حدّق فيه الكل بدهشة عارمة ، وهو يبتعد عن مقعده ، ويدور فى المكان حولهم ، متابعًا بنفس الصرامة :

ـ من الحكمة إذن أن نترك هذه اللعبة كلها للإسرائيليين .
كل المواجهات ، والعنف والاصطدامات ، فإذا ما ظفروا به ، يمكننا أن ننسب النصر كله لنا ، أما لو فشلوا ، فهو فشلهم ، وليس فشلنا .

قال أحد الرجال فى توتر :

ـ ولكن تدخل الإسرائيليين يستفز العرب عامة ، ويزيد من اشتعال الموقف هناك .

التقط مدير المخابرات الأمريكي نفسًا عميقًا ، وقال فى حزم :

ـ الإسرائيليون يسعون لامتلاك قطعة من أرض العراق ، ومد سيطرتهم إليها ؛ كخطوة لتحقيق حلم الوطن الكبير لـ (إسرائيل) ، والممتد من الفرات إلى النيل ، وهذا يعنى أن المواجهة آتية لاريب ، وأن الصدام سيحدث حتمًا ، بسبب هذا أو غيره ، فلندفعه لأن يحدث لحسابنا إذن ، ونستفيد منه إلى أقصى حد .

تراجع أحد الرجال فى مقعده ، قائلاً :

ـ ليس من السهل خداع الإسرائيليين .

صمت مديره لحظة ، ثم قال فى حزم :

ـ فلنترك الأمور تسير فى مجراها ، ولنر إلى أين ستنتهى هذه الأمور .

وعاد يجلس على مقعده ، قبل أن يضيف :

ـ فالواقع أننى شديد الشغف ؛ لمعرفة ما الذى سينتهى إليه هذا الأمر ..

ومرة أخرى ، بدت الدهشة على وجوه الجميع ..

فصوت المدير ، كان يحمل بالفعل الشغف ..

كل الشغف ..

* * *

على الرغم من الصمت والظلام ، الذين خيما على مدينة (الفالوجا) ، على نحو يوحي بأن سكانها جميعهم غارقون فى نوم عميق ، مع اقتراب الفجر ، دب نشاط عجيب ، فى مناطق خفية منها ، ورجال المقاومة يستعدون لشن هجوم خاطف جديد ، على قوات الاحتلال ، التى خيل إليها أنها قد أحكمت قبضتها على الموقف تمامًا ، وسيطرت على المدينة عسكريًا وأمنيًا ..

إنهم مجموعة من الرجال والشباب والفتية ، أقسموا على القتال والجهاد ، وبذل الروح والدم ، فى سبيل تحرير وطنهم المحتل ..

وفى سرعة وعزيمة ،راحوا يحصون أسلحتهم ، ويعدونها ، ويراجعون خطتهم ، وقائدهم يقول لأركان حربه فى قلق :

ـ ما زالت هناك نقطة ضعف كبيرة ، فى خطة اقتحامنا للمبنى ، الذى يحتجز فيه المحتلون أسرانا ، فقد ضاعفوا من سمك جدرانه ، فى بداية الأسبوع السابق ، وربما نحتاج إلى صواريخ أكثر قوة .

راجع أركان حربه الخريطة فى سرعة ، وهو يقول :

ـ ربما لو هاجمنا من محورين ، يمكننا أن نربكهم ، ونشتت جهودهم ، بحيث نمنح إحدى فرقنا فرصة زرع المتفجرات ، عند قاعدة هذا الركن من الجدار ، وعندئذ ...

قاطعه القائد فى توتر :

ـ هذا مستحيل تقريبًا ، فالأمريكيون لديهم وسائل رصد إليكترونية متطوّرة ، وسيكشفون محاولة التسلّل ، ويتعاملون معها ، قبل حتى أن يبلغ فريقنا البقعة المنشودة .

شد اثنان من الشباب قامتهما ، وأحدهما يقول فى حزم :

ـ هذا لن يوقفنا أيها القائد .. سننسف تلك الجدار ، ونحرر رفاقنا ، حتى لو اقتضى الأمر أن نفجّر أجسادنا هناك .

هم القائد بقول شىء ما ، لولا أن قال أحد الرجال ، فى صرامة حازمة :

ـ لن يكون هناك داع لهذا .

التفت إليه الجميع فى تساؤل ، فأضاف ، وهو يشير إلى مدخل المكان :

ـ يمكننا استخدام تلك الحافلة المصفّحة بالخارج .

هتف بعضهم فى دهشة :

ـ أية حافلة مصفّحة ؟!

وهتف أركان حرب القائد :

ـ من أين جئت بهذه المعلومة يا رجل ؟!

أولاه الرجل ظهره ، وابتعد ، مجيبًا ، بنفس الصرامة الحازمة :

ـ إنها بالخارج .

هتف أركان الحرب فى قلق :

ـ وكيف علمت هذا ؟!

ضاع هتافه وسط همهمات الرجال ، الذين تدافعوا لرؤيـة الحافلة المصفحـة ، ومـا أن وقعت أبصـارهم عليهـا ، وهـى تقف أمام المكان تمامًا ، حتى هتف القائد فى حماس :

ـ رباه ! إنها حافلة مصفحة بالفعل ..

وهتف آخر :

ـ يمكننا أن نقتحم بهـا الأسوار فـى البداية ، ثـم نهاجم بعدها ، من كل المحاور .

وصاح ثالث :

ـ المحتلون لن يتوقعوا هذا أبدًا .

أما أركان الحرب ، فصاح بهم :

ـ رويدكم يا رجال .. تيقنوا من الأمر أولاً .. ربمـا تكون خدعة ..

ثم تلفت حوله فى عصبية ، مستطردًا :

ـ أين ذلك الرجل ؟! أين هو ؟!

تألقت عينا القائد ، وهو يغمغم :

ـ بل قل : من هو ؟!

التفت إليه أركان الحرب ، فى دهشة متوترة ، وهو يتساءل :

ـ هل تعنى أن ...

قاطعه القائد ، وهو يومئ برأسه ، مجيبًا فى اعتزاز :

ـ نعم .. إنه هو..

وتألقت عيناه أكثر ، وهو يضيف :

ـ ذلك المجهول ..

وانتفضت قلوب المقاتلين ..

وخفقت ..

بمنتهى الدهشة ..

والانبهار ..

والفخر ..

* * *

« استيقظى .. » ..

فتحت الصينية الحسناء (تيـا) عينيهـا ، فـى الصبـاح البـاكر ، فى المـنزل الذى تقيم به ، فى (ريو دى نـيرو) ، على تلك

الصيحة الهادرة القاسية ، واعتدلت فى فراشها فى بطء ، وهى تتطلع إلى ذلك العملاق الأصلع ، الذى وقف عند قاعدة الفراش ، مصوبًا إليها فوهة مسدس ضخم ..

وعلى الرغم من هيئته الرهيبة المخيفة ، ظلت هى هادئة ، على نحو مدهش ، وهى تتثاءب قائلة :

ـ لابد وأن أتقدم بشكوى لمالك العقار ؛ فهو لم يخبرنى أنه يستخدم هذه الوسائل المبتكرة ، لإيقاظ السكان .

تجاهل العملاق تعليقها الساخر ، وهو يقول فى خشونة :

ـ هيا .. ارتدى ملابسك ، فسنذهب معًا فى رحلة قصيرة .

تثاءبت مرة أخرى ، فى تكاسل مستفز ، وعادت تستلقى على فراشها ، قائلة بابتسامة مستهترة :

ـ ولماذا لاتدخر الوقت ، وتقتلنى هنا مباشرة ؟!

كان من الواضح أن دعابتها لم ترق له قط ، وهو يصرخ فى وجهها ، وأصابعه تكاد تعتصر زناد المسدس ، من فرط الانفعال :

ـ هيا .

أحنقه ، وضاعف من انفعاله ، أنها قد أجابته بضحكة ساخرة قصيرة ، قبل أن تعتدل جالسة فى رشاقة وسرعة ، قائلة :

ـ هل أوذى مشاعرك ، لو أخبرتك أننى لا أميل إلى تغيير ثيابى أمامك .

احتقن وجه العملاق ، وقاوم فى صعوبة ، رغبته الصارمة ، فى نسف رأسها بمسدسه ، وهى تثب من الفراش فى خفة ، متابعة فى بساطة :

ـ هيا .. اذهب إلى المطبخ ، وأعد لنفسك قدحًا من القهوة ، ولن أعترض لو صنعت لى قدحًا آخر .

احتقن وجهه أكثر ، ولكنها أضافت ، وهى تبدأ فى تبديل ملابسها بالفعل ، وكأنها لم تعد تبالى بوجوده :

ـ وتذكر فى المرة القادمة ، أننى قد نشأت فى وسط مقاتل .. أى أن الأسلحة ، مهما بلغت قوتها ، لم ولن تخيفنى أبدًا .. هل يمكنك استيعاب هذا ؟

لم تمض دقائق عشر ، على قولها الأخير ، حتى كانت تغادر منزلها ، مع ذلك العملاق ، وهى تحمل قدحًا كبيرًا ، من القهوة الساخنة ، وتتجه إلى السيارة (الفان) الكبيرة ، التى تقف عبر الشارع ، وهى تقول ساخرة :

ـ لاتقل لى : إنها سيارة اتصالات ، فقد سئمت رؤية زعيمك ، على الشاشات الرقمية .

دفعها أمامه في غلظة وخشونة ، نحو السيارة (الفان) ، وهو يقول :

ـ تقدمي .

رمقته بنظرة صارمة ، وهي تمسك قدح القهوة بإحكام أكثر ، بعد أن انسكب معظمه إثر دفعته ، ثم اعتدلت ، واتجهت بخطوات سريعة نحو (الفان) ، وقبل أن تبلغها ، فتح أحدهم بابها الخلفي ، وأشار إليها ، قائلاً :

ـ أسرعي .

وثبت داخل السيارة الكبيرة ، وتطلعت إلى الشاشة المسطحة داخلها ، قبل أن تغمغم :

ـ آه .. كنت على حق .

كان هناك رجل واحد داخل السيارة ، انضم إليه العملاق الذي أيقظها ، والذي أغلق الباب خلفهم ، وهو يقول في خشونة ، موجهًا حديثه للآخر ، الذي بدا أشبه بالفنيين ، منه برجال العصابات :

ـ هيا .. اجر الاتصال .. الزعيم ينتظر .

أسرع الرجل يضغط الأزرار ، وهو يقول :

ـ فورًا .

استرخت (تيا) تمامًا في ذلك المقعد ، الذي أجلسوها عليه ، في مواجهة الشاشة ، وارتشفت رشفة من قهوتها الساخنة ، وانتظرت حتى ظهرت صورة مستر (X) على الشاشة ، ثم ابتسمت ، قائلة :

ـ مرحبًا يا عزيزي مستر (X) .. قبل أن نبدأ حديثنا .. اسمح لي بوقفة قصيرة .

وقبل أن يستوعب مستر (X) مايعنيه قولها هذا ، استدارت هي بسرعة مدهشة مباغتة ، وألقت ماتبقى من قهوتها الساخنة ، في وجه العملاق ، الذي أطلق صرخة ألم رهيبة ، وهو يتراجع ، ويسحب مسدسه ، صائحًا :

ـ أيتها الـ ...

هوت قبضتها على عنقه ، لتبتر عبارته ، وتسجنها في حلقه ، وتسد معها مسار الهواء إلى رئتيه ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، وارتطم بباب السيارة من الداخل ، وخرجت منه حشرجة مكتومة ، وهو يضرب الهواء بقبضتيه ، وكأنما يحاول التشبث بأي شيء ، بعد أن سقط مسدسه أرضًا ..

ولكنها هوت بقبضتها على عنقه مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وبخوار أشبه بالثيران ، هوى العملاق جثة هامدة ؛ حدّق فيها ذلك الرجل الآخر ، قبل أن يرفع عينيه إلى (تيا) بكل رعب الدنيا ، ولكنها اعتدلت ، قائلة فى هدوء عجيب ، وكأنها لم تقتل رجلاً ضخمًا ، منذ لحظة واحدة :

ـ اطمئن .. لست أحمل لك أية ضغائن .

قالتها ، ثم عادت تجلس على ذلك المقعد المواجه للشاشة ، بمنتهى الثقة والهدوء ، وتبتسم ، قائلة :

ـ معذرة يا عزيزى (X) .. هل انتظرت كثيرًا ؟!

حمل صوته المعدّل إليكترونيًا ، كل غضبه وصرامته ، وهو يقول ، متجاهلاً تمامًا ما أصاب عملاقه :

ـ الثمن الذى طلبته ، تم إيداعه فى حسابك فى (سويسرا) ، كما طلبت .

تألّقت عيناها ، وهى تقول فى لهفة :

ـ حقًا ؟!

ثم أخرجت من جيبها كمبيوتر كفى صغير ، ضغطت زرًا واحدًا فيه ؛ لتجرى اتصالها بذلك البنك فى (سويسرا) ، وعادت عيناها تتألقان أكثر ، عندما تيقنت من أن ذلك المبلغ الضخم ، أصبح فى حسابها بالفعل ، وقالت فى ارتياح :

ـ عظيم .

سألها بمنتهى الصرامة :

ـ والآن ، أين البضائع ؟!

أجابته فى سرعة ، وهى تعيد الكمبيوتر الكفى إلى جيبها :

ـ هنا .

تساءل فى حذر صارم :

ـ أتعنين فى (ريودى جانيرو) ؟!

هزت رأسها نفيًا ، وهى تقول :

ـ كلا بالطبع .. لست بهذه السذاجة .. كنت أعنى أنهم هنا .. فى (أمريكا) اللاتينية .

هتف فى حدة :

ـ أين ؟!

التقطت نفسًا عميقًا ، وتراجعت فى ذلك المقعد الصغير ، وهى تجيب :

ـ فى (كولومبيا) .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتساءل فى قلق :

ـ فى أى مكان من (كولومبيا) ؟!

حملت لهجتها شيئاً من الزهو ، وهى تجيب :

ـ عند صديقى (لاماس) .

ازداد انعقاد حاجبيه فى شدة ، وهو يسأل فى توتر :

ـ (لاماس) ؟! أتعنين (باولو لاماس) ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وهى تقول :

ـ بالضبط .. (باولو لاماس) .. إمبراطور المخدرات فى (كولومبيا) .

نطقتها بلهجة أقرب إلى التحدى ، فخيم عليهما صمت تام لبضع لحظات ، شاركهما فيه ذلك الرجل ، الذى انكمش فى ركن السيارة ، وقد تجمدت أطرافه من فرط الرعب ، ثم كان مستر (X) هو أول من كسر حاجز الصمت ، وهو يقول :

ـ ومتى يمكنك استعادة البضائع ؟!

هزت كتفيها فى استهتار ، مجيبة :

ـ هذا يتوقف على مرونة صديقنا (لاماس) ، وإمكانية تعاونك معه مستقبلاً .

زمجر مستر (X) ، وبدت زمجرته مضحكة ، عندما تم تعديلها إليكترونيًّا ، حتى أن (تيا) قد ابتسمت ، قبل أن تسمعه يقول فى غضب :

ـ لم يكن هذا ضمن صفقتنا .

عادت تهز كتفيها ، قائلة :

ـ اعتبره تعديلاً بسيطًا ، فقد كان من الضرورى أن أتيقن من تأمين الصفقة ، حتى اللحظة الأخيرة .

شعر مستر (X) بغضب هادر ، يسرى فى أعماقه ، ويتفجر فى عروقه ، وهو يتطلع إلى وجهها الخالى من أية تعبيرات ، ثم لم يلبث أن قال فى صرامة :

ـ أنت تعبثين بنا ، ولا يمكننى قبول أمر كهذا .

استفزته بهزة أخرى من كتفيها ، وهى تقول :

ـ وما العبث فى هذا .. كل ما تحتاجه هو زيارة صغيرة إلى أدغال (كولومبيا) ، ومليونى دولار للعزيز (لاماس) ، وسيسلمك البضائع على الفور .

زمجر مستر (X) ، وهو يقول فى حدة :

ـ لن نتعاون مع تاجر مخدرات كولومبى قذر .

انفجرت ضاحكة فجأة ، على نحو استفز كل ذرة من مشاعره ، وأثار دهشة الرجل القابع فى الركن حتى النخاع ، وهو الذى يرتجف رعبًا ، لمجرد التحدث إلى مستر (X) مباشرة ، على شاشة جهاز الاتصال ، والذى انتفض كيانه كله ، عندما هتف هذا الأخير فى غضب :

ـ ما الذى يضحكك ؟!

تراجعت فى مقعدها ، فى استهتار واضح ، وهى تقول :

ـ تسألنى ما الذى يضحكنى ؟! إنه أنت يا عزيزى مستر (X) .. أنت زعيم أضخم منظمة جاسوسية إجرامية ، فى العالم كله ، ترفض التعامل مع تاجر مخدرات ، على الرغم من أنه لم يرتكب نصف ما ارتكبته منظمتك من جرائم .

انطلقت زمجرته مرة أخرى ، وهو يقول فى حدة :

ـ لن نتعاون معه .. هذا قرار نهائى .

بدت له هزة كتفيها محنقة هذه المرة ، وهى تقول فى لامبالاة :

ـ هذا حقك .

ثم نهضت من المقعد الصغير ، متابعة :

ـ ولكنها الوسيلة الوحيدة ؛ لتحصل على ما دفعت ثمنه بالفعل .

وانحنت فى هدوء ، تلتقط مسدس العملاق ، الذى صرعته منذ قليل ، ثم اعتدلت متابعة :

ـ وبالمناسبة .. أمقت دومًا أن أترك خلفى شهودًا .

ومع نهاية عبارتها ، رفعت فوهة المسدس بسرعة ، نحو الرجل القابع فى الركن ، والذى اتسعت عيناه عن آخرهما ، بكل رعب الدنيا ، وهمّ بإطلاق صرخة ذعر .. ولكن رصاصتها انطلقت أولاً ..

واخترقت منتصف جبهته ..

تمامًا ..

وعلى الرغم من الوحشية ، التى ارتكبت بها جريمتها ، ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة ، وهى تلتفت إلى شاشة الاتصال ، فتراجع مستر (X) فى مقعده ؛ بهدوء عجيب ، لا يتناسب مع الموقف كله ، وهو يقول :

ـ تتصورين أنك قادرة على العبث بنا .. أليس كذلك ؟!

لم يكد يتم عبارته ، حتى انبعث صوت غليظ ، عبر مكبر صوتى قوى ، يقول بالبرتغالية ، فى صرامة شديدة :

ـ استسلمى يا سيدتى ، وإلا أطلقنا النار ، ونسفنا السيارة بلا رحمة .

انعقد حاجباها فى شدة ، واستدارت تلقى نظرة ، عبر النافذة الخلفية الصغيرة لسيارة (الفان) ، قبل أن يسرى فى جسدها الضئيل كله شعور عجيب ..

فحول السيارة ، فى كل الاتجاهات ، كان هناك جيش من رجال الشرطة البرازيلية ، بمدافعهم الآلية ..

وبضحكة ساخرة ، مال مستر (X) نحو الشاشة ، وهو يقول :

ـ المشكلة هى أن السيارة ، التى تجلسين داخلها ، خالية تمامًا من الوقود ، وتحوى بدلاً منه مادة النابالم الخارقة ، حتى أن رصاصة واحدة ، تنطلق نحو الخزان ، ستضعك داخل جحيم رهيب ، يشوى فيه جسدك فى بطء ، وبلا رحمة ..

انعقد حاجباها فى غضب ، مع الضحكة التى ختم بها حديثه ، وشعرت لأول مرة ، أنه قد خدعها ، وهزمها فى هذه الجولة ، فلم تجد أمامها سوى أن تندفع ، قائلة فى حدة :

ـ اضحك ما شئت يا مستر (X) ، ولكن سل نفسك بين ضحكاتك الساخرة ، هل أتممت صفقة حقيقية بالفعل ، أم

أننى قد خدعتك منذ البداية ، ولا توجد أية بضائع ، يمكننى أن أسلمها لك .

بتر قولها ضحكات مستر (X) ، ودفع حاجباه إلى أن يلتقيا بشدة ، خلف الظل الذى يغمر وجهه ، وأطلق فى أعمق أعماقه تساؤلاً جديدًا ..

تُرى هل خدعته بالفعل ، ولم ينج رفاق (أدهم صبرى) من الموت ؟!

هل ؟!

* * *



٥ ـ الأرض ..

التقط (إيتان كوهين) نفسًا عميقًا ، من هواء (العراق) ، فى انتعاش واضح ، وهو يدور ببصره فى تلك البقعة ، التى وقع اختياره عليها ، فى الطريق الذى يصل العاصمة (بغداد) ، ببلدة (يعقوبة) ، قبل أن يلتفت إلى الجنرال (أيكون) ، قائلاً بابتسامة كبيرة ، لم ترق للأخير أبدًا :

ـ هذه القطعة تناسب مشروعنا بالضبط يا جنرال .

انعقد حاجبا الجنرال ، وهو يقول فى صرامة :

ـ وفقًا لما أبلغتنى به قيادتى ، أنتم تريدون قطعة أرض ، لبناء مقر سرى لجهاز (الموساد) ، ولكن هذه القطعة التى أخذتها ، تكفى لبناء مدينة صغيرة ، وليس مجرد مقر .

اتسعت ابتسامة (إيتان) ، وحملت ضعف ما كان بها من خبث ، وهو يقول :

ـ وماذا عن الحدود الآمنة يا جنرال .. إنه مقر لأقوى أجهزة مخابراتنا(*) ، ومن الطبيعى أن نحيطه بنطاق آمن ، حتى لا يتعرَّض للخطر .

(*) لدى (إسرائيل) ثلاثة أجهزة مخابرات ، المخابرات الحربية (أمان) ، ومخابرات رياسة الوزراء (الموساد) ، وجهاز الأمن الداخلى (شين بيت) .

قال الجنرال ، فى شىء من الحدة :

ـ أى خطر ؟! فى مساحة كهذه ، يمكنك بناء قصر منيف ، وإحاطته بمقار للأمن والحراسة ، تكفى للتصدى لجيش كامل .

بدا (إيتان) باردًا ، على نحو عجيب ، وهو يقول :

ـ لا بأس .. سنحاول الاكتفاء بهذا .

حدَّق فيه الجنرال مستنكرًا ، فأضاف فى شىء من الصرامة :

ـ مؤقتًا .

حاول الجنرال أن يكتم مشاعره ، تنفيذًا لتعليمات قيادته ، إلا أنه عجز عن هذا تمامًا ، فقال فى حدة :

ـ وما الذى تعنيه مؤقتًا هذه ؟!

رمقه (إيتان) بنظرة استهزاء مستفزة ، ثم تجاهل السؤال تمامًا ، وهو يشير بيده إلى الأرض ، قائلاً :

ـ متى يمكننا استلام أرضنا ؟!

ردَّد الجنرال (أيكون) فى حنق :

ـ أرضكم ؟!

مرة أخرى ، تجاهل (إيتان) تعليقه ، وهو يواصل :

ـ أريد إرسال جدول مواعيد واضح ، لقيادتى فى (تل أبيب) .

انعقد حاجبا الجنرال مرة أخرى ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أظنك ستنتظر كثيرًا ، قبل أن تفعل .

استدار إليه (إيتان) ، متسائلاً فى حدة :

ـ ولِمَ ؟!

شد الجنرال قامته ، مجيبًا بصرامة أكثر :

ـ أوامر قيادتى أن أدبر لكم مقرًا لجهاز مخابراتكم ، وليس قرية كاملة ، ولابد من استشارة المسئولين أولاً .

سأله (إيتان) فى سرعة :

ـ مثل من ؟!

أجابه الجنرال بنفس السرعة :

ـ وزير الدفاع .

أحنقته رنة السخرية ، فى صوت (إيتان) ، وهو يقول :

ـ فقط ؟!

قال الجنرال فى صرامة :

ـ لن يكون هذا يسيرًا .

مطَّ (إيتان) شفتيه ، وهو يقول :

ـ لاتقلق نفسك بالأمر .. المهم أن تخبرنى ، كم تحتاج من الوقت ، بعد الحصول على موافقة المسئولين ، لنتسلمنا قطعة الأرض هذه ؟!

شعر الجنرال (أيكون) بالضيق ، للثقة التى يتحدث بها رجل المخابرات الإسرائيلى ، مما جعله يجيب فى خشونة :

ـ المنطقة التى تريدونها ليست خالية ، إنها تضمّ بعض السكان ، والمزارع ، و ...

قاطعه (إيتان) ، فى صرامة لاتتفق مع الموقف :

ـ ألق بهم خارجًا ، وأحرق مزارعهم لو اقتضى الأمر .. هذا لن يقلقنا .

هتف الجنرال فى حدة :

ـ ولكنه يقلقنا نحن ، فما تطلبه يعنى خوض قتال عنيف ، ستتورط فيه قواتنا وحدها ، لتحصدوا أنتم الغنيمة وحدكم فيما بعد .

استعاد (إيتان) تلك الابتسامة المستفزة ، وهو يقول :

ـ لو أردتم أن تتولى قواتنا هذا الأمر ، فلسنا ...

قاطعه الجنرال هذه المرة فى حدة :

ـ كلاَّ .

اتسعت ابتسامة (إيتان) الخبيثة أكثر ، والجنرال يتابع فى عصبية :

ـ يكفينا ما نواجهه من متاعب ومشكلات .

قالها ، وراح يحك ذقنه فى توتر ، فسأله (إيتان) ، فى هدوء مستفز :

ـ فليكن .. متى ستسلمنا أرضنا ؟!

رماه الجنرال بنظرة نارية ، وهو يقول :

ـ ومتى ستنفذون أنتم وعدكم ؟!

تألقت عينا (إيتان) ، وهو يسأله :

ـ أتقصد بخصوص الإيقاع بذلك المجهول ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ بالضبط .

التقط (إيتان) نفسًا عميقًا ، وكأنما يروق له الأمر ، قبل أن يسأل بدوره :

ـ هل نفذتم الشق الخاص بكم ، بخصوص أسرى المقاومة ؟!

مطَّ الجنرال شفتيه ، مجيبًا :

ـ نعم .. أعلنّا أنه سيتم إعدامهم فجر الغد ، فى أكبر ساحات (الفالوجا) .

تألقت عينا (إيتان) مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ عظيم .

قال الجنرال فى حدة :

ـ ما العظيم فى هذا .. إننا نتوقع هجمات لا حصر لها ، ومحاولات انتحارية عديدة ؛ لإنقاذ الأسرى ، ومنع عملية إعدامهم العلنية هذه .. لقد أمرت بنشر فرقتين مدرعتين كاملتين ، مع كتيبة من القوات الخاصة ، حول الساحة ، التى سينفذ فيها حكم الإعدام .

بدا (إيتان) شديد الانفعال ، وهو يقول :

ـ لو أنه من نتوقعه ، فكل هذا لن يوقفه .

بدت دهشة مستنكرة ، فى ملامح الجنرال وصوته ، وهو يقول :

ـ وكيف ؟! هل سيأتى مع جيش كامل ؟!

هزّ (إيتان) رأسه نفيًا ، وهو يقول فى حزم واثق :

ـ بل سيأتى وحده .

هتف الجنرال فى غضب :

ـ وحده ؟! هل تسخر منا يا سيّد (كوهين) ؟!

هز (إيتان) رأسه فى هدوء ، مجيبًا :

ـ مطلقًا .. إننى أتنبأ بما سيحدث فحسب .

قال الجنرال فى حدة :

ـ لو جاء وحده ، فسنسحقه سحقًا .

رمقه (إيتان) بنظرة جانبية مستهترة ، قبل أن يقول :

ـ لقد وضعنا خطة محكمة ؛ للإيقاع به ، قبل أن يسحقكم .

اتسعت عينا الجنرال (أيكون) ، فى دهشة غاضبة مستنكرة ، وهمّ بقول شىء ما ، إلا أن (إيتان) لم يمهله

لهذا ، وهذا يعاود النظر إلى قطعة الأرض ، التى قرّرت دولته اغتصابها ، ويقول :

ـ بداية عظيمة .. ربما نتساءل بعدها ، لماذا يمتد حلمنا من الفرات إلى النيل ... فقط .

وانعقد حاجبا الجنرال ، فى سخط أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

★ ★ ★

« عرفت الجواب » ..

هتف نائب مدير المخابرات العامة المصرية بالعبارة ، فى حماس واضح ، وهو يدخل حجرة المدير ، الذى رفع عينيه إليه ، متسائلاً فى اهتمام :

ـ جواب ماذا ؟!

لوّح النائب بملف فى يده ، قائلاً :

ـ السؤال الذى طرحناه منذ يومين .. لماذا لم يحاول سيادة العميد (أدهم) الاتصال بنا ، لو أنه على قيد الحياة ؟!

تضاعف اهتمام المدير ، وهو يسأله :

ـ وما الذى توصلت إليه فى هذا الشأن ؟!

بدا النائب مفرط الحماس ، وهو يجيب :

ـ هناك سبب ما ، دفع سيادة العميد (أدهم) نحو (العراق) .. بحثًا عن شىء ما ، أو رغبة فى الانضمام إلى كل من يقاوم ويقاتل الاحتلال الأمريكى هناك .. ولأنه يدرك خطأ أن يفعل هذا بصورة رسمية ، فقد قرَّر القيام بالمهمة منفردًا ، دون الاتصال بنا ، على أى نحو كان ، ضمانًا لسرية ما يفعله .

صمت المدير بضع لحظات ، تطلع خلالها إلى نائبه ، وهو يدير الأمر فى رأسه جيدًا ، ثم لم يلبث أن قال :

ـ (ن ـ ١) رجل مخابرات محترف ، ولديه عشرات الوسائل السرية المضمونة ، لإبلاغنا بوجوده على قيد الحياة ، ثم إنه لا يحاول إخفاء تواجده فعليًا ، بل يعلنه على نحو قوى وغير مباشر ، بعملياته الجريئة القوية ، التى تحمل توقيعه هناك .. على أرض (العراق) .

تردَّد النائب بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى شىء من الحذر :

ـ تواجد الاحتلال الأمريكى ، فى أرض (العراق) ، حوَّلها إلى منطقة جذب ، لكل المجاهدين والمقاتلين ، من كل الأعراق والجنسيات ، و ...

قاطعه المدير فى حزم ، وهو يشير إلى الملف الذى يحمله :

ـ ماذا لديك بالضبط ؟!

التقط النائب نفسًا عميقًا ، وهو يضع الملف أمام المدير ، قائلاً :

ـ هناك ثلاثة رجال مخابرات ، فى مدرسة سيادة العميد (أدهم) ، يمكنهم التعامل بنفس أسلوبه ، وبمهارات تقترب كثيرًا من مهارته ، كما أشار هو بنفسه فى تقريره .

اعتدل المدير ، يفتح الملف أمامه فى اهتمام ، ونائبه يتابع ، بلمحة من التوتر :

ـ السورى (أكرم كيلانى) ، والأردنى (وجيه الهاشمى) ، والمغربى (محمد بن على) .

طالع المدير الأسماء فى الملف ، باهتمام أكثر ، قبل أن يرفع عينيه إلى نائبه ، قائلاً فى حزم :

- يمكنك الاتصال بأجهزة مخابرات دولهم ، ومراجعة موقفهم ، فى الوقت الحالى .

وهنا بدا سبب توتر النائب واضحًا ، وهو يجيب :

- غير متاحين .

خُيِّل للمدير أنه لم يسمع ، أو لم يستوعب جيدًا ، فعاد يسأله :

- غير ماذا ؟!

وهنا أطلق النائب لتوتره العنان ، وهو يقول :

- رجال المخابرات الثلاثة غير متاحين يا سيدى .. الأردنى والمغربى حصلا على إجازة طويلة ، ولم يمكن تحديد موقعهما خلالها ، على عكس ما تنص التعليمات ، أما السورى ، فلم يسلم نفسه إلى إدارته ، بعد أن قام بمهمة خاصة ناجحة ، فى (ماليزيا) .

التقى حاجبا المدير ، وهو يتراجع فى مقعده ، متمتمًا :

- ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

هزّ النائب رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

- حتى إداراتهم لا يمكنها إجابة هذا السؤال يا سيدى ، بل

لقد أدهشها وآثارها سؤالنا عنهم بالتحديد ، وهناك اعتقاد علم بأن ثلاثتهم يقومون بعمل مشترك ، لم يفصحوا عنه أبدًا .

تساءل المدير فى اهتمام :

- فى (العراق) ؟!

تردد النائب لحظة ، قبل أن يجيب :

- هذا هو الأرجح يا سيادة الوزير .

التقى حاجبا المدير أكثر وأكثر ، ونهض من خلف مكتبه ، كعادته كلما انهمك فى أمر ما ، ثم اتجه نحو النافذة ، وهو يكرر ، وكأنما يحدّث نفسه :

- ما الذى يعنيه هذا .. (ن - ١) يختفى تمامًا ، بعد انفجار عنيف ، فى قلب المحيط الأطلنطى ، ثم يظهر مجهول فى (العراق) ، يحمل نفس أسلوبه ، ويثير جنود قوات الاحتلال هناك ، فى نفس الوقت الذى يحيط فيه الغموض بثلاثة رجال مخابرات عرب ، أكد بنفسه أنهم امتداد له ..

أراد النائب أن يقول شيئًا .. أى شىء .. ولكنه آثر الصمت التام ، ليفسح المجال للمدير ، الذى غرق فى صمت عميق بضع لحظات ، قبل أن يضيف :

ـ هناك لغـز غـامض ، يحيط بهذا الموقف كلـه .. لغز يحمل أيضًا بصمة ..

ثم التفت إلى نائبه ، مكملاً بمنتهى الحزم :

ـ بصمة (ن ـ ١) .

ولم يعلّق النائب بحرف واحد ..

فبالنسبة إليـه ، كـان مـا يحدث فـى (العـراق) غامضـًا ومحيرًا ..

إلى أقصى حد ..

* * *

مطّت الصينية الحسناء (تيا) شفتيها فى حنق واضح ، ورجال الشرطة يدفعونها ، مقيّدة المعصمين خلف ظهرها ، إلى حجرة مدير شرطة (ريودى جانيرو) ، الذى استقبلها بنظرة باردة جافة ، وهو يضع قدميه فوق مكتبه ، فـى وجهها مباشرة ، قائلاً فى غلظة :

ـ اجلسى .

أجابته فى توتر صارم :

ـ دعهم يحلّون قيودى أولاً .

أطلّت من عينيه نظرة غضب مستنكرة ، وهو يكرّر ، فـى صرامة أكثر :

ـ اجلسى .

كررّت بدورها فى حزم :

ـ قيودى أولاً .

هبط بقدميه إلى الأرض ، وهو يعتدل فى غضب ، صائحًا بالشرطيين ، الذين اصطحباها إلى مكتبه :

ـ أجلساها .

استدار الرجلان القويان إليها فـى شراسـة ، وسحب أحدهمـا هراوتـه الثقيلـة القصيرة ، وهمـا ينقضـان عليهـا ، و ...

وفجأة ، وعلى الرغـم مـن القيـود المعدنيـة ، التـى تربط معصميها خلف ظهرهـا ، وثبت (تيـا) بمنتهـى الرشـاقة ، وركلت أحد الرجلين فى أنفه ، ثم دارت حول نفسها ، لتركل الثانى فى فكه ..

واختل توازن الرجلين ، مـع المفاجـأة وعنف الهجوم ، وأطلق أحدهما سبابًا ساخطًا ، وهو يسحب مسدسه ، محاولاً

النهوض ؛ للانقضاض عليها مرة أخرى ، إلا أنها لم تمنحه الفرصة لهذا ، وهى تركله فى معدته ثم فى أسنانه ، ثم تثب ، وتهوى بكعب قدمها على مؤخرة عنق الثانى ..

كل هذا خلال ثوان قليلة ، حتى أن مدير الشرطة لم يجد الوقت الكافى ، ليقفز من مقعده ، إذ لم يكد يهم بالنهوض ، حتى وثبت هى وثبة مدهشة ، بالغة الرشاقة والمرونة ، دفعت خلالها جسدها الضئيل إلى الخلف ، لتمرره من بين معصميها المقيدين ، بحيث صارت قيودها أمام جسدها ، ثم انحنت تختطف مسدس أحد الشرطيين ، ورفعت فوهته نحوه ، وهى تقول فى سخرية :

ـ أكان من الضرورى أن أفعل هذا .

حمل صوت مدير الشرطة كل توتره ، وهو يقول :

ـ لن يمكنك الخروج من هنا على قيد الحياة .. المبنى يغصّ بأكثر من مائتى رجل مسلح .

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ ومن يسعى للخروج من هنا ؟!

انحنت مع قولها ، دون أن تبعد فوهة مسدسها عن الرجل ، والتقطت مفاتيح القيود ، من حزام أحد الشرطيين

فاقدى الوعى ، فقال فى توتر أكثر ، وهو يحاول التسلّل خفية إلى مسدسه :

لماذا فعلت ما فعلت إذن ؟!

حلّت قيودها فى سرعة وخفة ، وألقتها خلف ظهرها فى استهتار ، وهى تجيب بابتسامة أنيقة :

ـ إننى أكره القيود .

ثم أضافت ساخرة :

ـ وأكره أكثر إطلاق النار على مدير شرطة ، عندما يلتقط مسدسه .

جذب يده إليه فى سرعة ، وبدا أكثر توترًا ، وهو يقول :

ـ إننى أحذرك .. أنا مدير الـ ...

قاطعته فى صرامة ، وهى تجذب إبرة المسدس :

ـ اجر اتصالك بمستر (X) .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يقول مضطربًا :

ـ بمن ؟!

أجابته بمنتهى الصرامة :

ـ بمستر (X) .. بالرجل الذى أمرك بفعل ما فعلته معى .

انتفض جسده انفعالاً ، وهو يقول :

ـ لم يأمرنــى أحد بشىء .. لقد تلقينا بلاغًا من أحد المواطنين ، بوجود أمور مريبة ، تحدث فى المنطقة ، فانطلقنا لتقص الأمر ، وعندما وصلنا ، سمعنا دوى طلق نارى ، و ...

قاطعته مرة أخرى ، وقد بدت أكثر حزمًا ، وصرامة ، وإصرارًا :

ـ هل ستجرى الاتصال ، أم أطلق النار مباشرة ؟!

تردّد الرجل ، على نحو واضح مضطرب ، وبدا وكأنه يبحث عن مخرج من هذا المأزق ، وهو يقول فى عصبية :

ـ لست أدرى بمن ينبغى أن أتصل بالضبط .. كل ما أعرفه هو أنك متهمة بقتل رجلين ، و ...

قاطعته للمرة الثالثة ، وقد حملت عيناها نظرة شرسة قاسية ، لا تتفق مع مظهرها الرقيق ، ولا جسدها الضئيل أبدًا :

ـ فليكن .. لقد استنفدت فرصتك .

بدا له من الواضح أنها لن تتردّد لحظة واحدة فى ضغط الزناد ، لذا فقد لوّح بيده ، هاتفًا :

ـ مهلاً .. سأفعل ما تريدين .

امتقع وجهه على نحو عجيب ، وهو يمد يده إلى درج مكتبه ، فقالت بكل الصرامة :

ـ مهلاً ..

أجاب مضطربًا :

ـ جهاز الاتصال هنا .. فى درج مكتبى .

قالت فى شراسة ، ومسدسها مصوّب إليه :

ـ أخرجه بيدك اليسرى ، وفى بطء واضح ، فلن أتردّد فى إطلاق النار ، عند أية بادرة شك .

أطاع أوامرها ، والتقط بيسراه جهازًا صغيرًا ، أشبه بتلفاز الجيب ، ثم أغلق درج المكتب ، ورفع الجهاز أمامها ، قائلاً :

ـ الاتصال يحتاج إلى ضغط بعض الأزرار .

قالت فى صرامة :

ـ فليكن .

ضغط زرى الاتصال ، بأصابع مرتجفة متوترة ، وهـو يغمغم :

ـ لن يروق له هذا أبدًا .

ابتسمت فى سخرية ، قائلة :

ـ لا تقلق نفسك بهذا .. لقد اعتاد الأمر .

تطلّع مدير شرطة (ريودى جانيرو) إلى الشاشة ، فى توتر شديد ، فى انتظار بدء الاتصال ، إلا أن الشاشة ظلت داكنة ، فغمغم فى عصبية :

ـ ربما لا يريد الاتصال فى الوقت الحالى ، أو ...

قبل أن يتم عبارته ، لمحت هى فى عينيه نظرة لهفة ، فاستدارت إلى مصدرها فى سرعة ، فى نفس اللحظة التى حدث فيها الاقتحام ..

فرقة كاملة من رجال الشرطة البرازيلية ، المخصصة لمكافحة الإرهاب ، اقتحمت المكان بعنف شديد ، فحطمت الباب ، وانقضت على (تيا) ..

دستة من العمالقة الأشداء ، بخوذاتهم السوداء ،

ودروعهم المضادة للرصاصات ، وأسلحتهم القوية ، وثبوا نحو (تيا) ، بجسدها الضئيل ، وملامحها الرقيقة ..

وبصرخة هادرة مدوّية ، ارتفعت فوهات مدافعهم القوية فى وجهها ، وتحفزت سبّاباتهم على أزندتها ، ومدير الشرطة يشد قامته ، قائلاً فى انفعال عصبى عنيف :

ـ قلت لك أنك لن تقلقنى بهذا أبدًا .

استدارت إليه (تيا) بسرعة البرق ، وهى تهتف :

ـ وكذلك أنت .

ومع هتافها ، ضغطت زناد المسدس .

وانطلقت الرصاصة ..

ومع اختراق رصاصتها لمنتصف جبهة مدير الشرطة ، هم الرجال بضغط أزندة مدافعهم ، لولا أن هتف صوت من بينهم :

ـ لا .. نريدها حية .

وهنا ، انتزع كل منهم هراوته ، فاستدارت إليهم (تيا) ، وأطلقت رصاصة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ثم هوت هراوة ثقيلة على مؤخرة عنقها ..

وهوت أخرى على صدغها ..

وثالثة على عنقها ..

وسقطت (تيا) الحسناء فاقدة الوعـي، وسـط رجـال الشرطة البرازيلية العمالقة .. سقطت دون أن يتم الاتصال الذى أرادته ..

ودون أن ينحسم جواب السؤال ..

أما زال (أدهم) ورفاقه على قيد الحياة ؟!

أم ماذا ؟!

* * *

« نريدك أن تتقدم باستقالتك .. » ..

ألقى الرئيس الأمريكى العبارة فى صرامة، فى وجه مدير مخابراته، داخل مكتبه البيضاوى، فانعقد حاجبا هذا الأخير فى شدة، وهو يقول :

ـ استقالتى ؟! ولماذا ؟!

أجابته مستشارة الأمن القومى، فى صرامة شديدة :

ـ لقد خدعتنا بشأن أسلحة الدمار الشامل فى (العراق)، مما دفعنا إلى التورط فى حربها .

هتف مدير المخابرات فى غضب :

ـ خدعتكم ؟! هل كذبتم حتى صدقتكم كذبكم ؟! المعلومـات التى قدمناها لكم، كانت تؤكد أنـه لا توجـد أسلحة دمـار شامل فى (العراق)، ولكنكم اعتمدتم على معلومات قديمة، لإقناع العالم بالعكس، أما عن مسألة التورط هذه، فالرئيس كان يبحث عن أية وسيلة، لإلصاق أحداث الحادى عشر من سبتمبر بدولة (العراق)، منذ اللحظة الأولى، وقبل أن يتبين أحد حقيقة الموقف(*) .

قال وزير الدفاع الأمريكى فى حدة :

ـ ولماذا لم تعترض حينئذ ؟!

هتف مدير المخابرات فى غضب :

ـ لأن منصبى لا يسمح لى بتكذيب الرئيس وإدارته .

(*) واقعة حقيقية، ذكرها (ريتشـارد كـلارك) مستشـار الأمن القومى الأمريكى السابق (Rechard A.Clarke)، فى كتابـه (ضد كل الأعداء) (Against All Enemies) .

هزّت مستشارة الأمن القومى كتفيها ، قائلة فى خشونة ، لاتتفق مع أنوثتها :

ـ القانون لايمنعك من هذا ، ومادمت قد أخطأت بدافع شخصى ، فعليك أن تتحمل المسئولية فى شجاعة .

هتف بكل حدته :

ـ المسئولية ؟! بل قولى إننى كبش الفداء ، الذى قررتم التضحية به ؛ لتحسين صورتكم أمام الرأى العام ، قبل الانتخابات القادمة .

زمجر وزير الدفاع ، قائلاً فى غلظة :

ـ فليكن .. إننا نضحى جميعًا ، من أجل مصلحة (أمريكا) .

صاح ثائرًا :

ـ مصلحة (أمريكا) ؟! ومنذ متى عملتم لمصلحة (أمريكا) .. إنكم فقط تعملون لمصالحكم الشخصية .. أنت من أجل قناعاتك المتطرفة ، ومستشارة الأمن القومى من أجل عقد وكراهيات سابقة ، ونائب الرئيس من أجل استثمارات خفية ، وحتى الرئيس نفسه ، لديه ...

قاطعه الرئيس الأمريكى فى عصبية :

ـ اسمع يا رجل .. الأمر لايقبل المناقشة .. أمامك حلان لاثالث لهما .. إما أن تستقيل ، أو تتم إقالتك ، مع اتهامك بخداع الشعب الأمريكى كله .

احتقن وجه مدير المخابرات ، واختنقت الكلمات فى حلقه ، فاكتفى بنقل بصره بين وجوههم ، التى بدت له مقيتة للغاية ، وبخاصة وجه الرئيس ، الذى أضاف فى خشونة صارمة :

ـ أريد استقالتك على مكتبى ، قبل مغيب الشمس ، وإلا ...

قبل أن يتم عبارته ، انطلق فى المكتب فجأة أزيز قوى .

ثم اشتعل التلفاز الكبير بغتة ..

وفى حركة حادة ، استدارت عيونهم جميعًا ، تحدّق فى الشاشة الضخمة ، قبل أن يطلق وزير الدفاع شهقة مكتومة ،وينعقد حاجبا مدير المخابرات فى شدة ، وتغمغم مستشارة الأمن القومى فى عصبية :

ـ لا .. ليس ثانية .

فما رأوه أمامهم جميعًا ، فى تلك اللحظة ، على شاشة التلفاز الكبير ، كان آخر شىء يتمنونه ويتوقعونه ..

على الإطلاق .

* * *

٦ـ ثلاثة أبطال ..

احتشد سكان (الفالوجا) ، قبيل أذان الفجر ، حول ذلك الميدان الكبير ، الذى وقف فيه رجال المقاومة البواسل ، مقيدى الأيدى خلف ظهورهم ، يحيط بهم جيش من قوات الاحتلال ، فى حالة من التحفز الشديد ، وفوهات مدافعه الآلية مصوبة إلى المدنيين ، خوفًا من أى تمرد ، أو محاولة هجوم انتحارية ..

وحول كل هذا ، صنعت الدبابات الأمريكية الثقيلة نطاقًا أمنيًا متلاصقًا ، ومدافع بعضها مصوَّب إلى الداخل ، والبعض الآخر إلى الخارج ..

وعلى عمومه ، بدا المشهد كله عجيبًا ، إلى حد كبير ..

فقوات الاحتلال ، بكل قوتها وعدتها ، بدت خائفة قلقة متحفزة ، تدور عيونها فيما حولها ، فى توتر وعصبية بلا حدود ..

أما رجال المقاومة ، الذين ينتظرون الإعدام ، فكانوا ثابتين شامخين ، ينتظرون الموت بلا خوف أو مهابة ..

إنهم فتية آمنوا بربهم ، وقاتلوا فى سبيله ، وارتضوا الشهادة من أجله ..

لذا ، ظلت قلوبهم قوية ..

صامدة ..

مؤمنة ..

ووسط جنود الاحتلال ، تحرك مدنى واحد ، يلقى أوامره هنا وهناك .. وكان هذا المدنى هو (إيتان كوهين) ، رجل (الموساد) الإسرائيلى ، الذى تألقت عيناه فى ظفر مسبق ، وهو يقول للضابط الأمريكى إلى جواره :

ـ لا أحد يملك حق الدخول أو الخروج ، من نطاق الدبابات .. حتى الجنرال (أيكون) نفسه ، لو لمحتموه هنا ، أطلقوا النار عليه على الفور .

حدّق فيه الضابط الأمريكى مستنكرًا ، فتابع موضحًا :

ـ لاحظ أن خصمنا يمتلك موهبة خاصة ، لا يباريه فيها أحد ، ويتعامل معها بمهارة مذهلة ، بحيث يمكنه أن يتقمص شخصيتك ، دون أن تميِّز أمك نفسها ، بينك وبينه .

هتف الضابط بمنتهى الدهشة :

ـ إلى هذا الحد ؟!

أومأ (إيتان) برأسه مؤيدًا ، وهو يقول :

ـ راجع ما فعله حتى الآن ، وستتيقّن من هذا .. لقد انتحل مرة هيئة أحد القادة ، ومرة أخرى هيئة الجنرال (أيكون) نفسه .. وفى كل مرة خدع الجميع تماماً .

مطّ الضابط شفتيه ، وهو يغمغم :

ـ هذا صحيح .

سرت فى جسده موجة من التوتر ، مع إدراكه لهذه الحقيقة ، وتلفّت حوله ، وكأنما يتوقّع رؤية ذلك المجهول فى أى مكان ، قبل أن يتابع فى عصبية :

ـ متى ستنتهى هذه المهمة السخيفة ؟!

أجابه (إيتان) فى سرعة ، وكأنما ينتظر السؤال :

ـ مع بدء أذان الفجر .

استدار إليه الضابط ، فى دهشة مستنكرة ، فتابع مبتسماً :

ـ إنهم يولون هذه اللحظة هنا اهتماماً كبيراً .

قال الضابط فى عصبية :

ـ ألهذا تستفز مشاعرهم باستغلالها ؟!

قال (إيتان) بنفس السرعة :

ـ ليس كلهم .

ثم التقط نفساً عميقاً ، قبل أن يضيف :

ـ إننى أستفز مشاعره هو ، وأدفعه للظهور ، ومحاولة إنقاذ الجميع ، مجازفاً بحياته .

مطّ الضابط شفتيه ، وغمغم فى توتر :

ـ لو أننى فى موضعه ، لما أقدمت على هذه الحماقة أبداً .

ابتسم (إيتان) ابتسامته الخبيثة ، وهو يغمغم :

ـ من حسن الحظ أنه ليس فى موضعك .

أدار الضابط عينيه إليه ، فى حركة حادة متوترة ، فأضاف فى سرعة ، وهو يلقى نظرة على ساعته :

ـ أعتقد أنه ينبغى أن نستعد .

كان الأمريكى يشعر بتوتر شديد ، يسرى فى كيانه كله ، إلا أنه أشار بيده إلى منفذ الحكم ، قائلاً فى صرامة آمرة :

ـ ابدأ ..

فور إشارته ، تحركت كتيبة الإعدام إلى مواقعها ، ومنفذ الحكم يهتف ، فى صوت جهورى :

ـ بناءً على الأوامر العسكرية ، تقرّر إعدام عشرة من

الإرهابيين ، فى هذه الساحة ، لجرائمهم فى حق قوات المساعدة الأمريكية .

سرت همهمة غاضبة متوترة ، بين السكان ، الذين احتشدوا حول الميدان ، ولكنه تابع ، موجهًا حديثه إلى كتيبة الإعدام :

ـ سلاح كل منكم يحوى رصاصة واحدة ، سيتم إطلاقها نحو الهدف ، عند إشارتى .

رفع جنود الكتيبة فوهات بنادقهم ، وصوبوها نحو رجال المقاومة ، الذين شدوا قاماتهم ، واعتدلوا فى حزم وبسالة ، وكأنهم لا يبالون تلقى الرصاصات فى صدورهم ..

ومن بين جنود الاحتلال ، خرج جندى ، يحمل مجموعة من العصابات السوداء ، واتجه نحو رجال المقاومة ، وعرض على كل منهم تغطية عينيه ، إلا أنهم رفضوا جميعًا هذا ، وقرروا مواجهة أعدائهم بعيون مفتوحة ، فتراجع الجندى ، حاملاً العصابات ، وأشار إلى منفذ الحكم ، الذى هتف ، وهو يرفع يده :

ـ استعد .

توترت أعصاب الضابط الأمريكى ، فى حين بدا (إيتان)

مترقبًا متحفزًا ، وهو ينقل عينيه بسرعة ، بين قناصته ، الذين انتشروا على أسطح المنازل ، فى انتظار ظهور ذلك المجهول ..

لم تكن لديه ذرة واحدة من الشك ، فى أنه سيتدخل حتمًا ؛ لمنع هذه المذبحة ، على نحو أو آخر ..

وكان ينتظره بمنتهى التحفز ..

وكذلك كان قناصته ..

وكانت لحظة استعداد كتيبة الإعدام ، هى اللحظة المناسبة تمامًا لظهوره ..

ولكن شيئًا ما لم يحدث ..

بنادق كتيبة الإعدام مصوبة ..

ورجال المقاومة فى أماكنهم ..

والأمر كله يحتاج إلى إشارة ..

إشارة واحدة ..

إشارة ينتظرها منفذ الإعدام ..

وتنتظرها الكتيبة ، بسباباتها المتحفزة على الأزندة ..

إشارة لابد وأن تأتى ، مهما كانت الظروف ، مع أذان الفجر ..

وساد الميدان كله هدوء رهيب ..

هدوء مترقب ..

متحفز ..

هدوء أشبه بذلك الذى يسود ، قبيل أن تهب العواصف ..

ثم انطلق آذان الفجر ..

انطلق يشق الصمت والسكون ، ويدفع المهابة فى القلوب ..

كل القلوب ..

ومع انطلاقه ، انتفض جسد الضابط الأمريكى ، وهتف بكل عصبيته :

ـ الآن .

وهنا ، وكأنما كان ينتظر هذا ، خفض منفذ الحكم يده ، هاتفًا :

ـ نفذ .

وهنا ، أفرغ جنود كتيبة الإعدام كل توترهم ، فى ضغط أزندة بنادقهم ..

وانطلقت رصاصاتهم ..

انطلقت مع صرخة لوعة وأسى ، أطلقتها حلوق العراقيين وقلوبهم ..

كل الحلوق ..

وكل القلوب ..

وأمام الأعين المذعورة الملتاعة ، سقط رجال المقاومة الأبطال .. وسقط معهم قلب (إيثان) ..

لقد فشلت خطته ..

كل ما توقعه لم يحدث ..

المجهول لم يظهر ..

لم يظهر أبدًا ..

ومع سقوط الأبطال ، انطلقت صرخات العراقيين ، وتعالى صوت بكاء النساء ، واندفع طبيب من بين قوات الاحتلال ، وفحص جثث رجال المقاومة فى سرعة ، قبل أن يشير بيده ، معلنًا مصرعهم جميعًا ..

وفور إشارته ، وبسرعة مدهشة ، ظهرت سيارة كبيرة ، تحمل شعار القوات الأمريكية ، وتم نقل جثث رجال المقاومة إليها ، قبل أن تنطلق مبتعدة ..

وخلفها ، انطلق العراقيون ، وهم يواصلون صراخهم وبكاءهم ..

وبكل توتره وانفعاله ، غمغم (إيتان) :

ـ مستحيل ! مستحيل !

أجابه الضابط الأمريكى فى عصبية :

ـ والآن هل تنصرف القوات أم ماذا ؟!

حدّق فيه (إيتان) ، بكل توتر الدنيا ، وكأنما لم يفهم سؤاله ، ثم تمتم فى عصبية نادرة :

ـ كان المفترض أن يظهر لإنقاذهم .

قال الضابط فى عصبية أكثر :

ـ ولكنه لم يفعل ، فما الذى ينبغى أن نفعله نحن ؟!

حدّق فيه (إيتان) مرة أخرى ، وكأنه لا يفهم عبارته ، ثم بدا بعد لحظات ، وكأنه قد استوعبها ، وهو يقول :

ـ يمكنكم الانصراف .

شد الضابط قامته ، وهو يقول بصرامة عسكرية :

ـ أشكرك .

ثم هتف بكل قوته :

ـ اجمع القوات .

تحرك الجنود بسرعة ، وكأنهم متلهفون على مغادرة المكان ، وراحت الدبابات تفك الحصار ، وعربات نقل الجنود المصفحة تتحرك فى الميدان ، و (إيتان) يراقب كل هذا فى ارتباك حقيقى ، وهو يغمغم :

ـ مستحيل ! كان ينبغى أن يظهر .. لست أفهم كيف لم يفعل ؟! كيف ؟! كيف ؟!

لم يكن قد أتم عبارته فعليًا ، عندما اتجه نحوه أحد الجنود الأمريكيين ، وأدى التحية العسكرية فى قوة ، وهو يقدم له حقيبة صغيرة ، قائلاً :

ـ معذرة يا سيدى ، ولكن الطبيب طلب منى تسليمك هذه الحقيبة .. يقول : إنها تحوى ما يهمك رؤيته .

انعقد حاجبا (إيتان) ، فى شك متوتر ، وهو يتساءل :

ـ أى طبيب ؟!

أجابه الجندى فى دهشة :

ـ الطبيب المصاحب للكتيبة يا سيدى .

ازداد انعقاد حاجبى (إيتان) ، وهو يلتقط الحقيبة بمنتهى الحذر ، ويفتحها ، و ...

وانتفضت كل ذرة فى كيانه ..

فالحقيبة كانت تحوى معطف الطبيب ، والعصابات السوداء ، وكومة من الرصاصات ، والرخصة العسكرية لتلك السيارة ، التى حملت جثث رجال المقاومة ..

وتفجّر غضب رهيب فى جسد (إيتان) ، ورفع عينيه بحركة حادة ، يحدّق فى الاتجاه ، الذى اختفت فيه السيارة .

فقد استوعب الموقف ..

كل الموقف ..

وكل اللعبة ..

* * *

على الرغم من دقة الموقف وسخافته ، تفجّر الجنرال (أيكون) بضحكات ساخرة عالية ، احتقن لها وجه (إيتان) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هل لى أن أعلم ما الذى يضحكك يا جنرال ؟!

رفع الجنرال حاجبيه ، فى دهشة ساخرة مصطنعة ، وهو يقول :

ـ ما الذى يضحكنى ؟! يا لَه من سؤال !! ألا تعرف ما الذى يضحكنى ، يا رجل المخابرات الإسرائيلى العبقرى ؟! لقد أخبرتنى قيادتى أنك رجل من طراز خاص جدًا ، وأنك وفريقك قادرون على الإيقاع بذلك المجهول ، خلال أسبوع واحد ، وأجبرتنى على منحك سلطات واسعة ، لتنفيذ عملية الإعدام الحمقاء فى (الفالوجا) ، وعلى الرغم من هذا ، وبعد كل الاحتياطات المبالغة التى اتخذتها ، إلى حد منعى شخصيًا من الحضور ، عبث بكم المجهول ، وجعلكم أضحوكة مخزية ، ودفعكم إلى تنفيذ عملية إعدام زائفة ، تحت سمعكم وبصركم .

شعر (إيتان) بثقل على صدره ، وبغصة فى حلقه ، وهو يقول فى عصبية ، حملت الكثير من سخطه وانفعاله :

ـ لم يكن من الممكن أبدًا توقع ما حدث يا جنرال ، فالأمر تم ببراعة مذهلة ، تفوق كل التصورات ، وبترتيب متقن ، لم نستعد له فى الواقع ، فلقد تم استبدال رصاصات كتيبة الإعدام برصاصات زائفة ، وانتحل أحدهم هيئة الجندى المسئول عن عصابات الأعين ، والذى أخبر رجال المقاومة

ما سيحدث ، وهو يتظاهر بسؤالهم عما إذا كان سيخفى أعينهم بالعصابات أم لا ..

أطلق الجنرال ضحكة ساخرة أخرى ، وهو يقول :

ـ نعم .. وبعدها انتحل آخر شخصية طبيب الكتيبة ، وعندما تظاهر رجال المقاومة بالسقوط صرعى ، هرع إليهم ، وأعلن مصرعهم ، ثم جاء ثالث بالسيارة ، التى استولى عليها ، وانتحل هيئة سائقها ، وحمل ما تصوَّرتموه جثث الرجال خارج الميدان ، تحت سمعكم وبصركم .

لم يستطع كتمان متابعة ضحكاته ، فى نهاية عبارته ، فأطلقها مع إضافته :

ـ وبعدها تتساءل : لماذا أضحك ؟!

انعقد حاجبا (إيتان) فى غضب ، وهو يقول :

ـ المفترض أن يبكيك هذا ، لا أن يضحكك يا جنرال .

اعتدل الجنرال فى جدية تامة ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .. لقد حاولت .

ثم تفجَّر ضاحكًا مرة أخرى ، وهو يتابع :

ـ ولكننى فشلت فى هذا تمامًا .

هب (إيتان) من مقعده ، وهو يقول فى غضب :

ـ ليس هذا الشىء الوحيد ، الذى فشلت فيه يا جنرال .

توقَّفت ضحكات الجنرال ، وهو يقول فى صرامة :

ـ خطأ يا سيِّد (كوهين) .. الفشل الذى حدث يعود إليك ، وإلى رجالك وحدهم ، وفقًا لتوليك مسئولية العملية كاملة ، منذ اللحظة الأولى .

قال (إيتان) فى حدة :

ـ ليس هذا هو الفشل الذى أعنيه يا جنرال .. إنما أشير إلى فشلك التام ، فى الخروج من أية دروس مستفادة مما حدث .

شد الجنرال قامته ، وقال فى صرامة غاضبة :

ـ وأية دروس يمكن أن تستخلصها ، من عملية فاشلة كهذه يا سيِّد (كوهين) ؟! أتعنى عدم الاعتماد على الإسرائيليين ، أم ماذا ؟!

احتقن وجه (إيتان) ، وهو يقول :

ـ كلاَّ يا جنرال ، وإنما عنيت المعلومات ، التى يمكن الفوز بها مما حدث .

التقى حاجبا الجنرال ، وهو يتساءل فى حذر :

ـ أية معلومات ؟!

أجابه (إيتان) ، وهو يتحرك فى المكان بعصبية واضحة :

ـ أول معلومة يمكننا إدراكها ، فى سهولة بالغة ، هى أننا لانواجه مجهولاً واحداً ، كما كنا نتصوّر ..

ثم توقف فجأة ، ورفع سبابته ، ووسطاه ، وإبهامه ، مضيفاً :

ـ إننا نواجه ثلاثة .

بدا وكأن الجنرال قد انتبه فجأة إلى هذه الحقيقة ، وهو يعتدل أكثر ، ويتراجع برأسه على نحو عجيب ، قبل أن يغمغم فى عصبية :

ـ ثلاثة ؟!

أجابه (إيتان) فى صرامة ، وكأنما راق له استعادة السيطرة على الموقف كله ، فى حضور الجنرال :

ـ نعم يا جنرال .. ثلاثة .. ثلاثة من المحترفين ، الذين يجيدون التعامل مع هذه الأمور .. ثلاثة يجيدون انتحال

شخصيات الآخرين ، ولديهم جرأة مدهشة ، ومصدر للمعلومات داخلنا أيضاً .

انتفض الجنرال ، قائلاً :

ـ مستحيل ! لايمكن أن يخوننا أحد رجالنا ، أو ...

قاطعه (إيتان) ، فى صرامة أكثر :

ـ لايوجد مستحيل ، فى مثل هذه الأمور يا جنرال .. الخيانة باقية ، ما بقى القتال ، وما بقيت الحروب ؛ فهى جزء لايتجزأ من الحياة بتضادها واختلافاتها ، وكما يوجد الأوفياء ، ينمو دوماً الخونة .. هذه أبسط حقيقة ، يدركها من فى مثل مهنتنا .

غمغم الجنرال فى خفوت :

ـ يدركها أم يمارسها ؟!

انعقد حاجبا (إيتان) فى شدة ، وهو يقول :

ـ ماذا يا جنرال ؟!

لوّح الجنرال بيده ، قائلاً فى صرامة :

ـ لاشىء .. أتم حديثك .

رمقه (إيتان) بنظرة غاضبة ، قبل أن يواصل حديثه ، قائلاً :

ـ هذه المعلومة تقلب تصورنا للموقف كله رأسًا على عقب ، فقد كنا واثقين تمامًا ، من أننا نواجه (أدهم صبرى) شخصيًا ، على الرغم من احتمالات مصرعه ، التى تتجاوز التسعين فى المائة ، إلا أن ما حدث اليوم ، يخفض ثقتنا بمقدار ثمانين فى المائة على الأقل ، ويضعنا أمام حيرة كبيرة ، واحتمال خيالى مخيف .

زمجر الجنرال ، قبل أن يتمتم :

ـ لا تقل لى إن خصمكم يمكنه أن ينقسم إلى ثلاثة ، كما يحدث فى الروايات المصوَّرة الهزلية .

انعقد حاجبا (إيتان) فى صرامة ، وهو يغمغم :

ـ كلاّ .. إنه ليس كذلك .

تساءل الجنرال ، بلهجة لم تخف رنة السخرية فيها :

ـ كيف توجد ثلاث نسخ منه إذن ؟!

شرد (إيتان) ببصره وتفكيره ، وهو يتمتم :

ـ هذا هو السؤال الأوَّل .

تساءل الجنرال فى حذر :

ـ أهناك أسئلة أخرى ؟

أجابه (إيتان) فى صرامة :

ـ بالطبع ؛ فانتفاء الفرضية الأولى ، يضعنا أمام فرضية أخرى ، وتساؤل آخر ، يمثل بالنسبة لنا منتهى الأهمية .

سأله الجنرال ، فى حذر أكبر :

ـ وما هو ؟!

استدار إليه (إيتان) ، وظلّ صامتًا بضع لحظات ، وكأنما يبحث عن السؤال فى ذهنه ، قبل أن يجيب فى حزم ، حمل لمحة واضحة من التوتر :

ـ ما مصير (أدهم صبرى) بالضبط ؟!

وكان (إيتان) على حق تمامًا ، فى قوله هذا ..

فهذا هو السؤال ..

السؤال الحقيقى ..

* * *

« لا أحد يمكنه أن يجيب هذا أبدًا يا سيِّدى » ..

نطق نائب مدير المخابرات العامة المصرية العبارة ، فى توتر ملحوظ ، وهو يراجع ذلك التقرير ، الوارد من (العراق) ، قبل أن يعيده إلى مكتب المدير ، متابعًا :

ـ فالواقعة ، كما رواها الشهود ، وكما أكدها رجلنا ، فى جهاز المخابرات الإسرائيلى ، تؤكد أننا أمام ثلاثة أبطال ، وليس بطلاً واحداً ، مما يلقى ظلالاً قوية من الشك ، حول بقاء سيادة العميد (أدهم) على قيد الحياة ، ويطرح احتمالات جديدة .

تراجع المدير فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمامه ، وهو يقول فى حزم :

ـ رجال المخابرات العربية الثلاثة .

أشار نائبه بسبابته ، قائلاً فى سرعة :

ـ بالضبط .

بدا الاهتمام الشديد على وجه المدير ، وهو يميل إلى الأمام فى بطء ، وعقله يعيد دراسة الأمر كله ، على ضوء المعلومات الأخيرة ..

كان الموقف ينعشه فيما سبق ؛ لأنه كان يحمل ما يوحى بأن عميله الأول (ن ـ ١) ، قد نجا من ذلك الانفجار الرهيب ، فى قلب المحيط ، على نحو أو آخر ، وراح يقاتل المحتلين فى (العراق) ، لسبب لم يعلنه بعد ..

أما الآن ، فهو يشك فى هذا ..

بل فى كل أمر آخر ..

الموقف كله صار يوحى بأمر مختلف تماماً ..

فما يحدث فى (العراق) ، لا يحمل بالضرورة بصمة (ن ـ ١) ..

وإنما بصمة رفاقه ..

رجال المخابرات الثلاثة ، السورى ، والأردنى ، والمغربى ..

لسبب ما ، اجتمعوا هناك ، على أرض (العراق) ، وتعاونوا لمقاومة وقتال قوات الاحتلال الأمريكية ، بعيداً عن أية صورة رسمية ، يمكن أن تسبب المشكلات أو المتاعب لحكوماتهم ..

أو ربما يفعلون هذا ، انتقاماً له ..

لـ (ن ـ ١) ..

ربما !

« إننا نحاول جمع المزيد من المعلومات عنهم ياسيدى .. » ..

قطع نائبه أفكاره بقوله هذا ، فرفع عينيه إليه ، قائلاً :

ـ أبلغنى بكل ما تتوصل إليه ، أولاً بأول .

غمغم النائب :

ـ بالتأكيد يا سيادة الوزير .. بالتأكيد .

قالها ، وغادر المكتب ؛ للسعي خلف أية معلومات جديدة ، فتراجع المدير في مقعده مرة أخرى ، وأغلق عينيه ، وهو يغمغم :

ـ لماذا يصر (ن ـ ١) دومًا ، على أن يرتبط كل ما يتعلق به بالغموض الشديد ؟! لماذا ؟!

نعم ..

لماذا ؟!

* * *

سرى توتر شديد ، في المكتب البيضاوي للرئيس الأمريكي ، بعد انتهاء ذلك الاتصال ، الذي لم يكن ينتظره أو يتوقعه أحد ..

ولدقيقة كاملة أو يزيد ، لم ينبس أحد الحاضرين بحرف واحد ، ثم لم يلبث مدير المخابرات أن شد قامته ، وهو يقطع حبل الصمت ، قائلاً في صرامة :

ـ فليكن .. لم يعد لي شأن بكل هذا ، على أية حال .

قالها ، واتجه نحو باب المكتب ، في خطوات واسعة ، فاستوقفه الرئيس الأمريكي ، وهو يقول في عصبية :

ـ مهلاً .

توقف مدير المخابرات ، واستدار إليه بنظرة صارمة ، فتابع في حدة :

ـ إنك لن تورطنا في كل هذا ، ثم تنسحب هكذا ، بكل بساطة ؟!

هتف مدير المخابرات في غضب :

ـ أورّطكم ؟!

اندفعت مستشارة الأمن القومي ، تقول في حدة :

ـ بالطبع .. أنت الذي أجريت الاتصال الأول مع مستر (X) هذا .. أليس كذلك ؟!

لوّح بذراعه كلها ، هاتفًا :

ـ كان مجرد اقتراح ، وافقتم عليه جميعكم ، قبل أن يتم ذلك الاتصال .

صاح وزير الدفاع :

ـ وماذا كانت النتيجة ؟! لقد ارتبطنا باتفاقية تبادل معلومات ، على الرغم منا ، مع مستر (X) هذا ، وها هو ذا يستغل ما لديه ضدنا ؛ ليجبرنا على فعل ما نرفض فعله ، في أية ظروف عادية .

شد مدير المخابرات الأمريكية قامته ، وهو يقول في غضب :

ـ بل يحاول فقط استغلال ما تقدمون عليه بالفعل ؛ لتحقيق مآربه الخاصة .

احتقن وجه مستشارة الأمن القومي ، وهي تقول في حدة :

ـ أية مآرب ؟! إنه يطلب منا شن حرب على (كولومبيا) ؛ لاعتقال تاجر مخدرات هناك .

أشار مدير المخابرات بسبابته ، قائلاً :

ـ ليس أي تاجر مخدرات .. إنه (باولو لاماس) .. امبراطور تجارة المخدرات ، في العالم أجمع ، والرجل الذي يغرق الولايات المتحدة الأمريكية ، من أقصاها إلى أقصاها ، بأطنان من مخدراته وسمومه البيضاء سنويًا .

هتف وزير الدفاع في حدة :

ـ وما الفارق ؟!

مال مدير المخابرات نحوه ، وهو يجيب في صرامة شرسة :

ـ الفارق هو أنكم تستطيعون اللجوء إلى هذه الحجة ، لشن تلك الحرب ، التي يطلبها مستر (X) بالفعل .

تفجّرت دهشة عارمة في وجوههم ، وحملتها نظراتهم ، التي تبادلوها في صمت ، فابتسم مدير المخابرات في عصبية ، وهو يقول :

ـ ما زال بإمكاني أن أكون مفيدًا .. أليس كذلك ؟!

قالها ، ثم عاد يتجه نحو باب المكتب الرياسي البيضاوي ، في خطوات واسعة ، حملته إلى خارج المكان ، وهو يصفق الباب خلفه بعنف ..

بمنتهى العنف ..

* * *

آلامٌ رهيبة ، تلك التي تفجّرت في رأس (تيا) ، وهي تستعيد وعيها ، في تلك الزنزانة الرطبة ، التي ألقاها فيها رجال الشرطة البرازيلية ..

آلام جعلتها تتأوّه ، وهي تنهض مغمغمة :

ـ يا للأوغاد !

فاجأها صوت هادئ ، إلى درجة البرود ، يقول :

ـ من حسن حظك ، أنهم قد فعلوا بك ما فعلوه .

استدارت فى حركة حادة ، وحدقت بنظرة أشبه بالقطط المتحفزة ، فى ذلك الرجل الأنيق ، الذى يجلس فى ركن الزنزانة ، حاملاً حقيبته الجلدية الفاخرة على ركبتيه ، ومتطلعًا إليها مباشرة ، وهو يقول فى هدوء :

ـ هل أفزعتك ؟!

سألته فى شراسة :

ـ من أنت ؟!

لوَّح بكفه ، فى حركة مسرحية ، وهو يجيب :

ـ اسمى (دون مورو) .. محام من الدرجة الأولى ، والمكلف بمهمة الدفاع عنك .

ردَّدت ، فى حذر وحشى :

ـ الدفاع عنى ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ كل شىء يمكن تجاوزه .. بصماتك يمكن محوها من مقبض ذلك المسدس ، الذى قتل الرجل فى السيارة (الفان) ، والآخر يمكن القول بأن الأوَّل قتله ، دفاعًا عن النفس ، وهذا ما يمكن أن ينطبق عليك أيضًا ؛ لتفسير مقتل الأوَّل بعدها .

سألته فى غلظة :

ـ من أسند إليك هذه المهمة ؟!

تابع المحامى ، وكأنه لم يسمع سؤالها :

ـ أما بالنسبة لقتل مدير الشرطة ، الذى قمت به أمام عشرات الشهود من رجاله ، فسندفع بأنها حالة جنون مؤقت ، ولَّدها فزعك من الموقف كله ، و ...

وثبت نحوه بغتة ، وجذبته من سترته الفاخرة ؛ لتقطع تواصله ، وهى تكرِّر سؤالها فى حدة :

ـ من أرسلك ؟!

تطلَّع إلى عينيها مباشرة ، بمنتهى الهدوء ، وهو يجيب :

ـ هو نفسه من أرسلك إلى هنا .

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تقول :

ـ مستر (X) ؟!

هزَّ كتفيه بنفس الهدوء ، قائلاً :

ـ أنت من نطق الاسم .. لا أنا .

تطلّع كلاهما إلى عينى الآخر بضع لحظات ، فى تحدٍ واضح ، قبل أن تتراجع هى فى حركة حادة ، وهى تقول :

ـ أى عبث هذا ؟! يوقع بى فى قبضة الشرطة أولاً ، ثم يرسل محاميًا باهظ السعر ؛ ليدافع عنى فيما بعد .

ربّت الرجل على سترته ، وكأنما يعيد إليها هندامها ، بعد أن تركتها (تيا) ، وأجاب بهدوئه المستفز :

ـ ليس مجرد دفاع .. لقد أعددنا كل شىء لتبرئتك .. ولإعدامك أيضًا ، وفقًا لما تتخذينه من قرارات .

بدا عليها غضب شديد ، إلا أنها تماسكت ، وعقدت ساعديها أمام صدرها ، وهى تقول :

ـ ما المطلوب منى بالضبط ؟!

هز كتفيه ، مجيبًا :

ـ البضائع .. مستر (X) يصر على تسلّمها هنا ، وليس فى أدغال (كولومبيا) .

انعقد حاجباها فى شدة ، وتراجعت حتى استندت إلى الجدار الرطب بظهرها ، قبل أن تقول ، فى شىء من العصبية :

ـ وماذا لو كنت أصر أنا أيضًا ، على خروجى من هنا أولاً ، قبل أى شىء ؟!

هزّ المحامى رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يقول :

ـ فى هذه الحالة ، ليس بوسعى أن أعاونك .

ونهض حاملاً حقيبته ، واتجه نحو باب الزنزانة ، مضيفًا بنفس الهدوء :

ـ إلى اللقاء يا سيّدتى .

لم يحاول الالتفات إليها لحظة واحدة ، فى حين تبعته هى ببصرها ، قبل أن تقول فى عصبية :

ـ انتظر .

استدار إليها ، بنفس الهدوء المستفز ، فتابعت :

ـ هناك عقبة تعترض هذا .

سألها فى هدوء :

ـ أهى عقبة يمكن تجاوزها ؟!

أطلقت من صدرها زفرة عصبية ، وهى تجيب :

ـ لست أدرى ، ولكن (باولو) لن يسلم البضائع إلا لى شخصيًا ، وبعد أن يحصل على مليونى دولار .

ارتسمت ابتسامة ساخرة ، على ركن شفتى المحامى ، وهو يقول :

ـ سيدتى .. تبدو لى محاولة طفولية ؛ لإقناعنا بإخراجك من هنا.

استعادت عصبيتها ، وهى تقول :

ـ وماذا لو أنها الحقيقة ؟!

تطلع إليها المحامى بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يقول فى حزم صارم ، دون أن يتخلى عن هدوءه :

ـ موكلى يصر على الحصول على دليل .

قالت فى توتر :

ـ وكيف يمكن أن أمنحك دليلاً على هذا ؟!

هز رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يجيب :

ـ ليس على هذا ، ولكن على الركيزة الأساسية للأمر كله .

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تسأله :

ـ أية ركيزة ؟!

عاد يجلس على مقعده ، فى ركن الزنزانة ، وهو يجيب بمنتهى الحزم :

ـ لقد انتبه موكلى فجأة ، إلى أنه ليس لديه أى دليل ، على صحة وسلامة البضائع ، سوى ما رويته له .

ومال إلى الأمام ، مضيفًا فى صرامة :

ـ وهو يريد الدليل على هذا أولاً .

وازداد انعقاد حاجبى (تيا) ، دون أن تنبس ببنت شفة .

وعلى نحو ما ، بدا وكأنها لا تملك ذلك الدليل ، الذى ينشده المحامى ..

بل ولا تملك أى دليل ..

على الإطلاق .

* * *

٧ - بلا دليل ..

التف رجال المقاومة العراقية ، بكل جنسياتهم ، حول رفاقهم ، الذين نجوا من براثن العدو ، وبدا المكان أشبه بساحة من البهجة ، والفرح ، وتبادل التهنئة وعبارات الثناء والحمد لله ، فى حين بدا قائد المقاومة شديد الاهتمام ، وهو يسأل بعض الناجين :

- كيف كان منقذكم ؟!

أجابه أحدهم فى سرعة ، والانبهار ما زال يملأ ملامحه ، وينهمر مع صوته :

- جريئًا إلى حد مذهل ، وقليل الحديث إلى حد مثير .

واندفع آخر ، يضيف :

- لقد ألقينا عليه عشرات الأسئلة ، ونحن مبهورون بما فعله معنا ، ولكنه لم يجب سؤالاً واحدًا منها .. كل ما فعله ، وهو ينطلق بالسيارة مبتعدًا ، هو أن قال : « حمدًا لله على سلامتكم يا أبطال » ..

تساءل قائد المقاومة فى لهفة :

- وكيف كانت لهجته ، حين نطقها ؟

سأله رجل :

- ماذا تعنى أيها القائد ؟!

تضاعفت لهفة القائد ، وهو يسأله :

- أعنى هل بدت لهجته عراقية ؟!

أدهشه رد الفعل العجيب ، عندما تبادل الرجال نظرة حائرة ، فقال فى شىء من الحدة والعصبية :

- ألا يمكنكم معرفة لهجة الوطن ، الذى تقاتلون لتحريره ؟!

قال أحدهم بسرعة :

- بالتأكيد نعرفها أيها القائد ، ولكن عبارته لم تسمح لنا بتحديد هويته بالضبط .

هتف القائد غاضبًا :

- وكيف هذا ؟!

أسرع آخر يجيبه :

- لقد نطقها بالعربية الفصحى .

بُهتَ قائدهم للجواب ، وتراجع معتدلاً فى توتر ، وهو يغمغم :

- بالعربية الفصحى ؟!

أكد أحد الأبطال :

ـ نعم أيها القائد .. بالعربية الفصحى ، وكان هذا هو القول الوحيد ، الذى تردد على لسانه ، قبل أن ينزلنا فى منطقة آمنة ، قريبة من هنا .

حدق قائد المقاومة فى وجوه رجاله ، فى حيرة عصبية ، فى حين اندفع أحد الرجال نحو المجموعة ، وهو يقول فى حماس :

ـ هيا يا رجال .. سنقيم صلاة الجماعة ، لعودتكم سالمين .

سرت بينهم موجة من عبارات الخشوع ، وهم يتجهون إلى حيث تقام الصلاة ، وبينهم قائدهم ، الذى اشتعلت فى أعمق أعماقه فكرة تساؤلية حائرة ..

لقد نطق ذلك المنقذ عبارته بالعربية الفصحى ؛ لأنه أراد أن يخفى هويته عن رجال المقاومة الذين أنقذهم من موت محقق ..

ولكن لماذا ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

* * *

« ربما هناك هدف آخر .. » ..

نطق مدير المخابرات العامة المصرية العبارة فى حزم ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، بعد أن استمع إلى نائبه ، واتجه إلى النافذة كعادته ، كلما استغرق فى تفكير عميق ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يتطلع عبرها فى صمت لحظات ، قبل أن يتابع :

ـ ربما هى وسيلة لتوحيد الصف ، ونبذ الاختلافات ، بين رجال المقاومة العراقية ، الذين ينتمون إلى جنسيات مختلفة .

لم يستوعب نائبه الأمر تمامًا ، فتساءل فى اهتمام :

ـ بمعنى ؟!

التفت إليه المدير ، وهو يجيب :

ـ الأمة العربية أمة واحدة ، تفرقت لهجاتها مع استعمار أراضيها ، عبر مئات السنين ، من عدة مستعمرين ، ولكن تجمعها دومًا لغة واحدة ، لا خلاف على مفرداتها ومعانيها .

استوعب النائب الأمر دفعة واحدة ، فهتف فى حماس :

ـ العربية الفصحى .

أشار إليه المدير بسبابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .

ثم استدار عائدًا إلى مكتبه ، وهو يتابع فى شىء من الحماس :

ـ تمامًا نفس ما فعلناه هنا ؛ لإذابة الحواجز بين كل من يعمل فى المخابرات العامة ، التى تضم عسكريين ، ورجال شرطة ، ومدنيين أيضًا ، فقد حذفنا كل الألقاب والرتب ، ومنحنا الكل لقبًا واحدًا لا يتغير .. لقب (السيِّد) .. فمهما كانت هوية من أمامك أو رتبته ، قبل الالتحاق بالمخابرات ، فأنت تخاطبه باسم السيِّد فلان ، أو السيِّد علان .. هذا صنع تآلفًا عامًا بين الجميع .

واستقر على مقعده ، وتوقف لحظة ، ثم تابع فى حماس :

ـ هذا بالضبط ما يسعى لفعله أولئك المنقذون ، الذين نعتقد أنهم رجال مخابرات سابقين .. إذابة الحواجز بين الجميع ، واستخدام لغة مشتركة ، باعتبارهم يخوضون جميعًا معركة واحدة ، ضد عدو واحد .

هتف النائب فى حماس :

ـ فكرة رائعة يا سيِّدى .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، قبل أن يقول :

ـ من الواضح أن الشدائد تفجِّر أعظم ما فى الرجال .

أجابه النائب :

ـ بالتأكيد يا سيادة الوزير .. بالتأكيد .

تراجع المدير فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وغرق بضع لحظات فى تفكير عميق ، قبل أن يعتدل فجأة ، قائلاً :

ـ كيف يمكننا أن نرسل رسالة إليه ؟!

أطلّ تساؤل حائر ، من عينى النائب ، فأضاف المدير للتوضيح :

ـ إلى (ن ـ ١) .

تضاعفت حيرة النائب ، وهو يقول :

ـ أين يا سيِّدى ؟!

أجابه المدير فى حزم :

ـ فى (العراق) .

بدا وكأن حيرة النائب قد وثبت إلى ذروتها ، وهو يتطلّع إلى المدير ، عاجزًا عن الجواب ، فتابع هذا الأخير موضحًا :

ـ ربما لديه أسباب نجهلها ، تمنعه من الاتصال بنا ، ولكننا نستطيع أن نجد وسيلة للاتصال به ، لو سعينا إلى هذا .

قال النائب فى حذر :

ـ هذا يستلزم معرفتنا لمكانه أولاً ياسيّدى .

شد المدير قامته ، وهو يقول فى صرامة حازمة :

ـ فلنجعل هذا هدفًا إذن ، ولنبدأ فورًا .

هزّ النائب رأسه ، وهو يقول فى توتر :

ـ الأمريكيون والإسرائيليون عجزوا عن هذا ، على الرغم من تواجدهم فى ساحة المعركة ، وسيطرتهم عليها نسبيًا ، و ...

قاطعه المدير بنفس الصرامة :

ـ وماذا ؟! هل تريد أن تقول : إن ما أطالب الرجال به ، هو أمر مستحيل ؟!

انتفض النائب ، وهو يهتف :

ـ مطلقًا ياسيّدى .. فى قاموسنا ، لاوجود لكلمة (مستحيل) .

شدّ النائب قامته بدوره ، قائلاً :

ـ فورًا يا سيّدى ، فلعل هذا يحسم القضية الرئيسية .

تطلّع إليه المدير متسائلاً ، فأضاف فى سرعة :

ـ قضية وجود سيادة العميد (أدهم) على قيد الحياة .

والتقى حاجبا المدير فى شدة ..

فالسؤال بالفعل لم يحسم بعد ..

تُرى أمازال (أدهم صبرى) على قيد الحياة ؟!

وهل نجا من ذلك الانفجار الرهيب ، فى قلب المحيط الأطلنطى ؟!

هل ... ؟!

* * *

أخفى الظلام المحيط بوجهه ، انعقادة حاجبى مستر (X) ، وملامحه الغاضبة المحنقة ، وهو يتحدث إلى المحامى

(مـورو) ، عبر شاشــة الاتصـالات الخاصــة ، قـائلاً فـى خشونة :

ـ المفـترض ألا تضـع تلك الحقـيرة أية شـروط ، فى وضعها هذا .

أجابه المحامى فى هدوء :

ـ ليست شروطاً أيها الزعيم ، وإنما محاولة يائسة ، فهى تؤكد أن (باولو لاماس) لن يسلم البضائع إلا لها شخصياً ، وأن هذه كانت وسيلتها لتأمين نفسها ، حتى تضمن حفـاظك على حياتها .

هزّ مستر (X) رأسه فى صرامة ، قائلاً :

ـ لن أسـمح لها بالإفـلات من قبضـتى ، مهمـا كـانت الأسباب .

وافقه المحامى بإيماءة هادئة من رأسه ، قبل أن يقول :

ـ ولهذا فهى تقترح حلاً وسطاً .. أن تجرى اتصالها بشريكها (لاماس) ، وتطلب منـه إرسـال شـريط فيديـو خاص ، لأولئك المصريين ، موضع الصفقة ، حتى تثبت لـك أنهم على قيد الحياة هناك .

غمغم مستر (X) ، فى تفكير عميق :

ـ اتصال مع (لاماس) .

أدار الأمر كله فى رأسه فى سرعة ، وتوقـف بضع لحظات عند الإمكانيات التكنولوجية الهائلة لمنظمته ، فى مجال الاتصالات والتعقُّب ، قبل أن يتابع فى حزم :

ـ فليكن .. يمكنها إتمام الاتصال .

تساءل المحامى :

ـ من زنزانتها .

عاد حاجبا مستر (X) ينعقدان ، وهو يقول :

ـ هذا أمر محفوف بالخطر ، ثم أنه سيجعل مهمتنا أكثر تعقيداً وصعوبة ، وغير مضمونة النتائج أيضاً .

صمت المحامى لحظة ، ثم قال فى حزم :

ـ فلنخرجها منها إذن .

اكتسب صوت مستر (X) ، المعدّل اليكترونيًا ، صرامة قاسية ، وهو يقول :

ـ ربما كان هذا ما تسعى إليه بالضبط ، من لعبتها هذه ..

أن نخرجها من مأزقها ، بحيث تستعيد سيطرتها على الموقف كله .

ابتسم المحامى ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـ فى ظروف أخرى ، كنت سأعتبر هذا القول إهانة أيها الزعيم .

أجابه مستر (X) فى حدة :

ـ لو أنه لديك فكرة ، اطرحها فورًا ، فلست أميل إلى هذا الأسلوب المتحذلق ، الـ ...

قاطعه المحامى فى سرعة مباغتة :

ـ عملية هروب ..

مال مستر (X) إلى الأمام ، متسائلاً فى توتر ، وكأنما لم يستوعب الكلمة :

ـ عملية ماذا ؟!

أجابه المحامى بهدوئه الشديد :

ـ عملية هروب أيها الزعيم .. عملية يتم تدبيرها بدقة ؛ لتهريب تلك الصينية من سجنها .

سأله مستر (X) فى غضب :

ـ وبم يمكن أن يفيدنا هذا ؟!

أجابه هادئًا :

ـ سنخرجها من زنزانتها ، وتصبح فى قبضتنا ، دون أن تخرج من مأزقها ، أو من سيطرتنا ، فإما أن تتم الاتصال ، ونحصل على الدليل ، أو نعيدها مرة أخرى إلى الشرطة ، التى ستنبش الأرض بحثًا عنها حتمًا .

صمت مستر (X) لحظات ، مبهورًا بالفكرة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ وهل يمكنك تدبير هذه العملية ؟!

ارتسمت على وجه المحامى ابتسامة كبيرة واثقة ، وهو يجيب :

ـ بالطبع .

قال مستر (X) فى سرعة :

ـ ابدأ التنفيذ إذن .

نهض المحامى ، قائلاً :

ـ ستكون التكاليف باهظة .

أجابه مستر (X) فى حزم :

ـ لو فزنا بتلك البضائع ، ستكون الفائدة عظيمة أيضًا .

هم المحامى بسؤاله عن تلك الفائدة العظيمة ، المتوقعة من الحصول على أربعة مصابين ، حتى ولو انتموا إلى جهاز مخابرات كبير ، إلا أنه لم يلبث أن أدرك أن مهنته تحتم عليه عدم طرح الأسئلة ، فقال فى هدوء :

ـ فليكن .

وهنا ، أنهى مستر (X) الاتصال ، ولكن التساؤل ظل يشغل المحامى البرازيلى لساعات طوال ..

فما القيمة الحقيقية لهؤلاء الأشخاص ؟!

ومن يمكنه أن يقدّر أهميتهم ، ويحدد الثمن المناسب لهم ؟

لو أنهم بالفعل على قيد الحياة ..

لو ... !!

* * *

فرد رجل المخابرات الإسرائيلى (إيتان كوهين) خريطة كبيرة لدولة (العراق) ، على مائدة اجتماعات كبيرة ، وهو يقول لأعضاء فريقه ، الذين رافقوه من (تل أبيب) :

ـ هذه البقعة من الأرض ، ينبغى أن تكون البداية .. سنقيم فى وسطها مقرًا لنا ، ونحيط المنطقة كلها بسور عازل مرتفع ، ثم نبدأ فى بناء مقار إضافية ، ومساكن للضباط والعاملين ، بحيث لا يمضى عام واحد إلا وتكون المنطقة قد ازدحمت بنا ، بحيث نطالب بتوسع جديد ، تمتد معه أسوارنا لمناطق أكثر .. وأكبر ..

تساءل أحد رجاله :

ـ وهل سيسمحون لنا بهذا ؟!

رفع إليه (إيتان) عينين صارمتين ، وهو يقول :

ـ ومتى كنا ننتظر من يسمح لنا بما نفعله ؟!

تراجع الرجل متوترًا ، وسرى توتره بين الآخرين ، مما شعر معه (إيتان) بضرورة تهدئة الموقف ، فتابع قائلاً :

ـ هذه الأمور سيحلها السياسيون ، وستسير بتدريج هادئ ، بحيث تبدو كل خطوة منطقية وبسيطة ، وبعد عشر

سنوات من الآن ، لن يتذكَّر أحد كيف كانت (العراق) ، قبل أن نضع أيدينا عليها .

تساءل أحد الرجال فى حذر :

ـ هل نستهدف أرض (العراق) كلها ؟!

تألقت نظرة عجيبة فى عينى (إيتان) ، وهو يرفع رأسه ، مجيبًا فى سرعة :

ـ كبداية .

تبادل الرجال نظرة دهشة حذرة ، فالتقط هو نفسًا عميقًا ؛ لينعش به صدره ، قبل أن يتابع :

ـ الأمريكيون لن يحتملوا القتال المتواصل هنا لفترة طويلة ؛ فهم ليسوا شعبًا محاربًا ، على عكس ما يحاولون الإيحاء به ؛ إذ سرعان ما يثور شعبهم ، ويعترض على مقتل أبنائه ، وتتوتر الأمور ، وتتأزم ، مما يجبرهم على التراجع والانسحاب .. تمامًا مثلما حدث فى حربهم العبثية فى (فيتنام) ، والتى خسروا فيها آلاف الضحايا ، قبل أن يضطروا للانسحاب ، وهذا ما سيفعلونه هنا حتمًا ، وعندما يحدث هذا ، ينبغى أن نكون هنا ، وأن تكون لنا أقدام ثابتة

وقوية وأرض نقاتل من أجلها ، وقضية جديدة نثيرها ، ونصنع حولها عشرات القضايا الفرعية ، التى تضيع معها الفكرة الرئيسية ، فنبقى إلى الأبد .

غمغم أحد الرجال :

ـ سنعيد ما فعلناه فى (فلسطين) إذن .

انعقد حاجبا (إيتان) فى شدة ، وأطلَّ منهما غضب هادر ، وهو يقول :

ـ أية (فلسطين) ؟!

بدت الحيرة على وجه الرجل ، وحار فى البحث عن جواب ، إلا أن (إيتان) لم يكن ينتظر جوابًا فى الواقع ، وهو يتابع فى صرامة قاسية :

ـ تلك الأرض أرضنا ، التى وُعدنا بها ، من قبل أن تكون هناك (فلسطين) .. إنها أرض اليهود ، من أيام (موسى) .

تراجع الرجل ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد يا سيِّدى .. بالتأكيد .

خُيِّل لهم أن (إيتان) قد تحوَّل بغتة إلى واعظ دينى ، من الدرجة الثالثة ، وهو يتابع فى انفعال :

ـ (العراق) أيضًا قدرنا .. وكذلك (مصر) ، التى أخرجنا فرعون منها مقهورين .. هذه حدودنا ، التى نسعى إليها منذ القدم .. من الفرات إلى النيل .

وتألقت عيناه ، على نحو عجيب ، وهو يضيف :

ـ والظروف تساعدنا كما ترون ، وبخاصة مع حماقة الإدارة الأمريكية ، وضعف خبراتها السياسية ، التى ساعدتنا على إقناعها بخطورة (العراق) ، وحتمية احتلاله .. فعلنا هذا ونحن ندرك أن (العراق) لن يستسلم أبدًا ، وأنه سيقاتل لسنوات وسنوات ، وأن الأمريكيين سينهارون حتمًا ، إن عاجلاً أو آجلاً ، وسيكتفون عندئذ ببترول (العراق) ، ويتركون لنا أرضه ، التى ينبغى أن نمد جذورنا فيها الآن ، بحيث يصعب اقتلاعنا منها فيما بعد .

تساءل أحد الرجال ، فى حذر خافت :

ـ وماذا عن المقاومة ؟!

استدار إليه (إيتان) فى بطء ، مجيبًا بابتسامة :

ـ ولماذا تتصورُ أننا قد منحنا الأمريكيين حق البدء ؟!

لم يستوعب الرجل العبارة مباشرة ، ولكن (إيتان) تابع ، بعينيه المتألقتين :

ـ إنهم يسعون الآن لتصفية المقاومة (العراقية) ، ويستخدمون فى هذا كل قوتهم وأسلحتهم ، ويستنذفون اقتصادهم ، مكررين خطأ السوفيت فى (أفغانستان) ، دون أن ينتبهوا إلى هذا ، ونرجو ألا ينتبهوا إلى هذا ، إلا بعد أن يستنذفوا قدرات المقاومة أيضًا ، بحيث يمكننا أن ننقض نحن على ما تبقى منها بكل قوتنا ، عندما تحين لحظة استيطاننا هنا .

تبادل الرجال نظرة أخرى صامتة ، ثم قال أحدهم :

ـ ولكننا نساعدهم بالفعل ، على الإيقاع بذلك المجهول ، الذى يقضُ مضجعهم .

انعقد حاجبا (إيتان) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لم يعد مجهولاً .

وشد قامته فى توتر ، قبل أن يضيف :

ـ إنهم مجهولون .. ثلاثة رجال ، نجهل كل شىء عنهم وعن هويتهم وانتماءاتهم .

اندفع أحد الرجال ، يقول :

ـ إنهم عرب .

أدار (إيتان) عينيه إليه فى حدة ، فامتقع وجهـه ، وهو يتابع مرتبكًا :

ـ أعنى أنه ، بالنسبة لصراعهم معنا ، ومع الأمريكيين ، لا أهمية عندهم للإقليمية ، أو الـ ...

« خطأ .. » ..

قاطعه (إيتان) ، بذلك الهتاف الغاضب ، فتراجع الرجل فى توتر ، فى حين تابع هو فى غضب :

ـ هذا أهم ما ينبغى أن ننزعه منهم .. شعورهم بأنهم جسد واحد .. لابد وأن نسعى جاهدين ؛ لتعميق شعور الإقليمية لديهم ، ولبذر بذور الخلاف بينهم طوال الوقت ، بحيث يتشبث كل منهم بإقليميته ، وينبذ الإقليميات الأخرى .. بهذا فقط نضمن تفككهم ، ونأمن جانبهم ، حتى آخر الزمان .. لا تنسوا أبدًا القاعدة ، التى وضعها البريطانيون قديمًا .. (فرّق تسد) ، هذا أهم ما تعلمناه منهم ، أو ما لقناه إياهم عبر تاريخنا ، إن صح القول ، و ...

قاطعه فجأة رنين هاتفه المحمول ، فالتقطه من جيبه فى سرعة ، وهو يقول :

ـ (إيتان كوهين) .. من المتحدث ؟!

ولم يكد يسمع محدثه ، حتى انقلبت سحنته ، وحملت ملامحه انطباعًا وحشيًا مخيفًا .. وكان هذا يعنى أنه قد تلقى خبرًا مباغتًا وخطيرًا !!

خطير إلى أقصى حد .

* * *



٨ـ هروب ..

فجأة ، دوى الانفجار فى تلك البقعة ، التى يحتلها السجن الاحتياطى لشرطة (ريودى جانيرو) ..

ومع الاضطراب العنيف ، الذى ساد المكان إثر الانفجار ، وصفارات الإنذار ، التى انطلقت فى كل مكان ، وثبت الصينية الحسناء (تيا) فى خفة ، عبر فجوة منهارة فى جدار زنزانتها ، نحو سيارة (جيب) قوية ، برز منها رجل ضخم الجثة ، يهتف بها باللغة الصينية :

ـ أسرعى .. أسرعى ..

تحركت فى رشاقة فهد ، حتى بلغت السيارة ، وقفزت داخلها ، فى نفس اللحظة التى برز فيها بعض حراس السجن المسلحين ، وبدأوا فى إطلاق النار فى غزارة مدهشة ..

وانطلقت بها السيارة ، وسائقها يقول فى خشونة :

ـ الزعيم ينتظرك ، فى قاعة اتصالاتنا الخاصة .

غمغمت :

ـ على شاشة كبيرة .. أليس كذلك ؟!

تجاهل الرجل تعليقها ، وتبادل نظرة صامتة ، مع الصينى الضخم ، قبل أن يقول بنفس الخشونة :

ـ لقد طلب إحضارك إليه على الفور .

كان يتوقع منها تعليقًا على عبارته ، إلا أنه فوجئ بها تقول فى جذل عجيب :

ـ أليس من الغريب ألا تصاب السيارة برصاصة واحدة ، مع كل المهرجان ، الذى صنعه الحراس ، وهم يطلقون نيرانهم ، فى محاولة لمنعى من الفرار ؟!

تبادل الرجلان نظرة أخرى ، حملت مزيجًا من الدهشة والاستنكار ، قبل أن يقول الصينى الضخم فى قسوة :

ـ ليس هذا من شأنك .

رمقته بنظرة جانبية ، قبل أن تميل إلى الأمام ، وتسألهما فى استخفاف :

ـ لقد رشوتم الحراس .. أليس كذلك ؟!

وهنا ، سحب الصينى الضخم مسدسه من غمده ، وألصقه بصدغها ، فى حركة حادة سريعة ، وهو يقول :

ـ الأوامر أن نحضرك إلى قاعة الاتصالات الخاصة ، فور

هروبك من السجن ، وليس أن نتبادل الحديث معك ، وهناك بند إضافى ، يمنحنا الحق فى نسف رأسك بلا تردُّد ، إذا حاولت الفرار منا .

أدارت عينيها إليه فى لامبالاة ، وكأنما لاتعنى فوهة المسدس الباردة ، الملتصقة بصدغها شيئًا ، وقالت فى شىء من العبث :

ـ وهل أرسل مستر (X) رجلين فحسب ، للقيام بهذه المهمة ؟!

ابتسم قائد السيارة فى سخرية ، فى حين قال الصينى الضخم فى غلظة صارمة :

ـ لسنا مجرد رجلين أيتها المتحذلقة .. إننا القوة الضاربة للزعيم هنا ، وما من مخلوق أمكنه الفرار منا ، خلال السنوات العشر الماضية كلها .

هزّت كتفيها فى لامبالاة ، قائلة :

ـ لكل شىء بداية .

جذب إبرة مسدسه ، وألصق فوهته بصدغها أكثر ، وهو يقول :

ـ ولكل شىء نهاية أيضًا..

تطلّعت إليه بنظرة خاوية لامبالية ، على الرغم من دقة موقفها ، فأضاف قائد السيارة فى خشونة :

ـ وما دمت ذكية على هذا النحو ، فأنت تدركين جيدًا أنه لامفر لك من كل ما يحيط بك سوانا ؛ فسرعان ما تصدر الشرطة نشرة بأوصافك ، وتنطلق كالكلاب المسعورة خلفك ، وعندئذ سنحميك أنت ، أو تكون حياتك شاقة للغاية ، ولن تكتب لك النجاة أبدًا .

غمغمت فى هدوء :

ـ فليكن .. سأقبل بالمجازفة .

ثم تحرّك جسدها كله بسرعة مدهشة ، فمالت جانبًا ، وتراجعت إلى الخلف ، ويدها تمسك معصم الصينى الضخم ، وتدفع فوهة مسدسه بعيدًا عنها ..

ومع غضب المفاجأة ، صرخ الصينى ، وهو يضغط زناد مسدسه :

ـ أيتها الـ ...

ولم تكن صرخته قد اكتملت بعد ، عندما دوت رصاصته داخل السيارة ..

انطلقت من فوهة مسدسه ، الذى أبعدته (تيا) عنها ، واخترقت مؤخرة عنق سائق السيارة مباشرة ..

وانتفض جسد السائق فى عنف ، عندما خرجت الرصاصة من حلقه ، مع شلال من الدم ؛ لتخترق زجاج السيارة الأمامى ..

واختل توازن السيارة فى عنف ، والصينى الضخم يستعيد مسدسه ، صارخاً بكل ثورة الدنيا :

ـ أيتها الـ ...

مرة أخرى لم يجد الوقت لإتمام سبابه ، عندما اندفعت سبابتها ووسطاها ، لتضربان عينيه فى قوة ..

وتواصلت صرخة الغضب بصرخة ألم رهيبة ، والصينى الضخم يرفع يديه إلى عينيه ، اللتين فقأهما هجوم (تيا) ، التى دفعت جسدها الضئيل إلى الأمام ، فى رشاقة مدهشة ، على الرغم من انحراف السيارة عن الطريق الرئيسى ، وجذبت مسدس السائق الصريع ، فى نفس اللحظة التى انقلبت فيها السيارة على جانبها ، والتى أمسك فيها الصينى الضخم شعرها الأسود الطويل ، وأدار فوهة مسدسه نحوها ، صارخاً :

ـ ستدفعين الثمن .

وداخل السيارة المقلوبة ، دوت رصاصة قوية ..

وتفجَّر نهر من الدم ..

ولثوان ، بدا وكأن كل ركاب السيارة قد لقوا مصرعهم داخلها ، فقد شملها سكوت صامت رهيب ..

ثم فجأة ، برزت (تيا) ، من نافذة السيارة المقلوبة ، ودماء الصينى الضخم تغمر وجهها وجسدها وثوبها ..

وفى رشاقة مدهشة ، على الرغم من كل ما حدث ، وثبت إلى الأرض ، ويدها ما زالت تقبض على مسدس السائق ..

وفى لا مبالاة عجيبة ، ألقت نظرة على السيارة المقلوبة ، مغمغمة :

ـ رجلان فقط ؟! من الواضح أن مستر (X) هذا لا يتعلَّم من أخطائه أبداً ..

قالتها ، وهزَّت كتفيها ، وهى تتجاوز الطريق الرئيسى ، وتختفى وسط الأشجار المحيطة به من الجانبين ، لتبدأ رحلة طويلة ..

رحلة هروب ..

بلا نهاية ..

وبلا جواب واضح للسؤال ..

أى سؤال ..

وكل سؤال ..

* * *

« ليس أمامنا سوى جواب واحد .. » ..

نطقت مستشارة الأمن القومى العبارة فى عصبية ، وهى تتحرك داخل حجرة مكتب الرئيس الأمريكى فى عصبية ، فقال وزير الدفاع فى سخط :

ـ أى قول هذا ؟! إننـا متورطـون فى (أفغانستان) و (العراق) بالفعل ، وهذا يستنزف جهدنا واقتصادنا ، إلى أقصى حد ، فكيف نبدأ حربًا جديدة فى (كولومبيا) ؟!

لوّحت بذراعها كله ، قائلة ، فى عصبية أكثر :

ـ سنجد حتمًا ما نبرِّر به هذا ، وما نقنع بوساطته الكونجرس والشعب .

هتف وزير الدفاع :

ـ ليست هذه هى المشكلة .

تدخَّل الرئيس ، قائلاً فى توتر :

ـ بل هى كل المشكلة .. بالنسبة لى على الأقل ، فالانتخابات على الأبواب ، والشعب سئم القتال والحروب ، ونحن لم نقدم له بعد دليلاً واحدًا ، على أن (العراق) كان يمتلك أسلحة دمار شامل بالفعل ، وسيستغل الخصوم هذا ؛ لنسف كل جهودنا ، فى حملة إعادة الانتخاب .

تضاعفت عصبية مستشارة الأمن القومى ، وهى تقول :

ـ ماذا علينا أن نفعل إذن ، لتجاوز هذه الأزمة ؟! مستر (X) يصرّ على مطالبه ، ويهدد بفضح أمر اتفاقنا السرى معه ، لو لم ننفذها بأقصى سرعة .

اندفع وزير الدفاع يقول فى توتر :

ـ ولن تكون هذه آخر مطالبه وتهديداته .

استدار إليه الرئيس الأمريكى بنظرة مذعورة ، فتابع فى عصبية :

ـ ما دام يملك ما يهددنا ويخضعنا به طوال الوقت .

تساءل الرئيس فى هلع :

ـ ما الذى ينبغى أن نفعله إذن ؟!

انعقد حاجبا وزير الدفاع ، وهو يجيب :

ـ الحل الوحيد فى رأيى ، هو أن نحشد كل قوتنـا ، ونستعين بكل أجهزتنا وقدراتنا ، لكشف هويـة مستر (X) هذا ومكمنه ، ثم نقضى عليه تمامًا .

اتسعت عينا الرئيس فى ذعر ، ولكن مستشارة الأمن القومى قالت فى حزم عصبى :

ـ تلك الزعيمة كادت تظفر به من قبل ، وهذا يعنى أنه ليس منيعًا ، كما يحب أن يصورّ نفسه ، ومـا دامت هى قد توصلت إليه ، فبإمكان أجهزتنا أيضًا أن تفعل .

بدا الذعر أكثر ، على وجه الرئيس ، وهو يتراجع فى مقعده ، ويدرس الاقتراح فى رأسه ، قبل أن يتساءل فى قلق :

ـ وهل تعتقدان أن مدير المخابرات الجديد ، يمكنه القيام بمهمة كهذه ، بكل ما تستلزم من سرعة ومهارة وسرية ؟!

أجابته مستشارة الأمن القومى فى عصبية :

ـ لو لم يكن فى إمكانه هذا ، فالأفضل أن نعدمه الآن ، لا أن نضعه على رأس أقوى أجهزتنا الأمنية .

نقل الرئيس بصره ، بينهـا وبين وزير الدفـاع ، قبل أن يغمغم ، فى توتر لم يستطع كتمانه :

ـ فليكن .

لم يكد يتم عبارته ، حتى طرق أحدهم الباب ، فانتفض جسده فى عنف ، وهتف دون مبررّ :

ـ من بالباب ؟!

دلف أحد رجال الخدمة السرية إلى المكتب البيضـاوى ؛ وهو يحمل مظروفًا مغلقًا ، وقال فى احترام :

ـ هذا المظروف وصل مع مندوب خاص ، من المخابرات المركزية ياسيادة الرئيس ، ويقولون : إنها معلومات بالغة السرية والخطورة ، ولابد من مطالعتها فورًا .

امتقع وجه الرئيس الأمريكى على نحو عجيب ، كما لو أن المظروف يحـوى شـهادة وفاتـه ، فـى حيـن اندفعت مستشارة الأمن القومى ، تختطف المظروف ، وتفضـه فى سرعة ، قائلة فى صرامة ، حملت بعض انفعالها :

ـ لقد سلمته ، ويمكنك الانصراف .

غـادر رجل الخدمـة السرية المكان فى سرعة ، وأغلق

الباب خلفه فى هدوء ، فتعلّق بصرا الرئيس ووزير دفاعه بالمظروف ، فى اهتمام بالغ ، ومستشارة الأمن القومى تقول فى توتر :

ـ إنه من جهاز فحص العينات البيولوجية ، بخصوص رجل المخابرات المصرى .

غمغم وزير الدفاع فى عصبية :

ـ (أدهم صبرى) ؟!

أما الرئيس ، فقد خفق قلبه فى عنف ، مع تلك النظرة العجيبة ، التى أطلّت من عينى مستشارة الأمن القومى ، وهى تطالع التقرير ..

النظرة التى توحى بأن محتوياته غريبة وخطيرة .. إلى أقصى حد ..

* * *

ارتسمت نظرة دهشة ، فى عينى الجنرال (أيكون) ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، فى تلك الساعة المتأخرة ؛ لاستقبال (إيتان كوهين) ، الذى بدا متوترًا بدوره ، وهو يقول :

ـ وصلتنى تعليمات جديدة من قيادتى يا جنرال .

سأله (أيكون) فى حذر :

ـ تعليمات جديدة ؟! بشأن ماذا ؟!

أجابه (إيتان) بتوتره ، وهو يلقى جسده على أقرب مقعد إليه :

ـ بشأن تعاوننا .

هتف الجنرال فى دهشة :

ـ تعاوننا ؟!

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتابع صارمًا :

ـ ما أذكره ، وفقًا لتعليمات إدارتى ، هو أننا لا نتعاون ، بالمعنى المعروف للتعاون يا سيِّد (كوهين) .. لقد أتيت لتحصل على قطعة من أرض (العراق) ، تقيمون عليها مقرًا لجهاز مخابراتكم ، والمفترض أن يكون مقابلها هو الإيقاع بذلك المجهول ، أو التخلّص منه ، ولكن المجهول تحوّل إلى ثلاثة ، وأنتم حصلتم على رقعة هائلة من الأرض ، فى أفضل موقع ، بين (بغداد) و (يعقوبة) .. أى أنكم وحدكم ربحتم من هذه الصفقة .. كالمعتاد .

أثار انتباهه أن (إيتان) بدا مستمعًا فى انتباه ، بأكثر

مما هو ثائر أو متوتر ، وخاصة عندما اعتدل على مقعده ، مرددًا فى اهتمام كبير :

ـ بين (بغداد) و (يعقوبة) ؟!

التقى حاجبا الجنرال ، وهو يقول فى توتر :

ـ هل نسيت موقع الأرض ، التى اخترتها بنفسك ، يا سيد (كوهين) ؟!

لم يجب (إيتان) تساؤله ، وإنما نهض من مقعده ، فى نشاط جم ، يفوق نشاطه المعتاد ، وهو يقول :

ـ إذن فلا يوجد تعاون بيننا ، من وجهة نظرك يا جنرال .

هذه المرة ، لم يجب الجنرال تساؤله ، وإنما تطلّع إليه مليًا ، بمنتهى الاهتمام والانتباه ، والتركيز ..

ولسبب ما ، وعلى الرغم من ملامحه ، التى يحفظها عن ظهر قلب ، بدا له أن هذا ليس رجل المخابرات الإسرائيلى الذى يعرفه ..

فهذا ، الذى يقف أمامه ، أكثر طولاً ، وأعرض كتفين ، وعيناه تلتمعان فى ذكاء واضح جلى ..

وبكل حذر الدنيا ، تحرك الجنرال ، محاولاً الوصول إلى ذلك المسدس الكبير ، فى درج مكتبه ، وهو يقول :

ـ ليس من الناحية الرسمية .

لمح فى وضوح تألق عينى ذلك الواقف أمامه ، والذى اقترب منه ، وهو ينظر إلى عينيه مباشرة ، قائلاً بلغة إنجليزية أمريكية سليمة ، تحوى رنة ساخرة واضحة :

ـ لقد لاحظت الفارق .. أليس كذلك ؟!

حاول الجنرال كسب الوقت ، وهو يتساءل :

ـ أى فارق ؟!

ابتسم ذلك الذى ينتحل هيئة (إيتان) ، وهو يقول :

ـ لا داعى لإضاعة الوقت يا جنرال .. إنك حتى لا تجيد إخفاء انفعالاتك .

كانت يد الجنرال على مسافة سنتيمترات قليلة من مسدسه ، وعلى الرغم من هذا ، فقد تجمدت يده ، وتيبّست أصابعه ، وعجز عن التقاطه ، وهو يتطلّع إلى عينى الرجل ، الذى مال نحوه فى بطء وهدوء ، ومد يده يلتقط مسدسه ، ويزيحه جانبًا ، وهو يقول بصوت عميق ، كاد معه قلب الجنرال يهوى بين قدميه :

ـ إذن فالأوغاد لم تكفهم أرض (فلسطين) ، فسعوا للاستيلاء على أرض (العراق) أيضًا .

لم يكن الجنرال (أيكون) ، فى حياته كلها جبانًا أو رعديدًا ، إلا أنه ، وفى هذه اللحظة بالذات ، شعر بكل خلية فى جسده ترتجف ، من غرابة الموقف وهوله .

وسرت فى جسده كله قشعريرة عجيبة ، و ...

وفجأة ، اقتحم (إيتان كوهين) الحقيقى ورجاله المكان .

اقتحموه بمنتهى العنف ، وفوهات مدافعهم الآلية كلها مصوبة إلى من ينتحل هيئته وشخصيته ..

وبحركة سريعة ، التفت إليهم البديل ..

وللحظة ، التقت نظراته بنظرات (إيتان) ، الذى انتفض قلبه بين ضلوعه ، على الرغم من تماسكه الظاهر ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هنا تنتهى لعبتك يا هذا .. انزع قناعى عن وجهك ، ودعنا نرى ملامحك الحقيقية .

صمت البديل لحظة ، قبل أن يعقد ساعديه أمام صدره ، فى وقفة متحدية ، وهو يقول بالعبرية :

ـ انزعه أنت لو أردت .

تطلَّع إليه (إيتان) ، فى حذر متوتر ، وهو يدير الأمر فى رأسه ، ثم لم يلبث أن حسم أمره ، وقال فى صرامة شرسة :

ـ سأفعل ؛ فلن يكون من الصعب نزعه عن جثتك .

ومع قوله ، رفع يده بإشارة يحفظها رجاله جيدًا ..

ودوت الرصاصات فى مكتب الجنرال (أيكون) .. بمنتهى القوة .

* * *

انتهى الجزء الأوَّل بحمد الله

ويليه الجزء الثانى بإذن الله

(القنـــــاع)



رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

- قوات الاحتلال تصول وتجول على أرض (العراق) ..
- ورجال المقاومة يبذلون الروح والدم فى سبيل الحرية ..
- ثم يظهر ذلك المجهول ..
- ويُطرح السؤال ..
- هل عاد (أدهم صبرى) إلى الساحة ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وشارك بعقلك وكيانك رحلة البحث عن الرجل .. (رجل المستحيل) .

